دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني
سلسلة الرواية العربية المعاصرة (٥٣)

نتوءات قويس قزح

د. مصطفى عطية جمعة

سلسلة الرواية العربية المعاصرة (53)
سلسلة تصدر عن دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني
المؤلف: د.مصطفى عطية جمعة
العنوان: نتوءات قوس قزح
التصنيف: رواية
الطبعة الأولى: مارس 2017
تصميم الغلاف: المبدع محمود الرجبي
تصميم الكتاب: د. جمال الجزيري
الناشر: دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني
دار نشر إلكترونية مجانية لا تهدف للربح
للمراسلة لنشر أعمالكم في السلاسل المختلفة التي تصدرها الدار، الرجاء قراءة التعريف بمجموعة دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني لمعرفة مواصفات تجهيز الملف:
https://www.facebook.com/groups/Ketabat.Jadidah.Ebook.Publishers/
وإرسال الملف وفقا لشروط النشر على إيميل الدار:
Ketabat.jadida@gmail.com
@2017 حقوق نشر النصوص ملك لأصحابها، وحقوق هذه الطبعة الإلكترونية ملك لدار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني. وكل كاتب مسئول عن لغته وعن أسلوبه وعن محتوى كتابه وأية منازعات خاصة بحقوق الملكية الفكرية يكون طرفها المؤلف وليست الدار طرفا فيها. وتعلن دار كتابات جديدة أنها توقفت عن مراجعة الكتب المنشورة فيها لغويا ونحويا، وأي أخطاء لغوية ترد في أي كتاب يتحمل مسؤوليتها المؤلف وحده.

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

1438 هـ -2017 م

دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني
رقم الإيداع في دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني
2017/3/18/585

رقم الكتاب في السلسلة: 53
السلسلة: الرواية العربية المعاصرة
المؤلف: د.مصطفى عطية جمعة
العنوان: نتوءات قوس قزح
التصنيف: رواية
الطبعة الأولى: مارس 2017
عدد الصفحات: 178
الناشر: دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني
رقم الإيداع في الدار: 2017/3/18/585

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني.
حقوق نشر النصوص ملك لأصحابها، وحقوق هذه الطبعة الإلكترونية ملك لدار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني. وكل كاتب مسؤول عن لغته وعن أسلوبه وعن محتوى كتابه، وأية منازعات خاصة بحقوق الملكية الفكرية يكون طرفها المؤلف وليست الدار طرفا فيها.

صدر في هذه السلسلة

تحميل 50 رواية، دار كتابات جديدة للنشر الإلكتروني منشورة حتى يناير 2017 (حجم الملف: 40 ميجا)

http://up.top4top.net/downloadf-406ft6ri3-rar.html

نبذة عن الرواية

تحلق بنا هذه الرواية في عالم شخصية " بدرية " ، التي لا تملك إلا عطاءها في الحياة ، مثلها مثل الملايين غيرها ، عنوان حياتهن البساطة ، وسبيلها الكدّ ، وثمرتها العطاء . إنها رواية الزمن الممتد من طفولة بدرية إلى كهولتها ، وهي أيضا رواية الزمن القصير الذي يدور في يوم واحد في حياتها ، مع حركة قوس قزح ، فتقف على نتوءاته ، متأملة محطات حياتها لتقول كلمتها الأخيرة . وهي رواية الفيوم / المكان في أعماق هذه المرأة التي شهدت تغيرات المدينة عبر نصف قرن ، وأخيرا هي رواية الوطن عندما يكتفي أبناؤه بالمشاهدة والصمت .

ليس إهداء

أيتها الصامتة، كالملايين

لعل البعضَ يسمعُكِ.

الفصل الأول:

عطر البنفسج يعبّق البكور والضحى

أذّن الديك، عقيرته عالية، شعرَتْ بحركته فوق سطح البيت كأنه يعتلي رأسها، تحركتْ في فراشها، تمتمت. الحمد لله ..، أذانُ الديك متصل، ابتسمتْ بسكينة، همستْ: "لن تسكت يا "جاد" قبل أن آتيك بالأكل"، قدماها في الأرض، على الحصير الرطب، تردّد وهي تمسح رضاب شفتيها. "الحمد لله الذي أحياني بعد ما أماتني ..."، بآلية تمدّ يدها نحو المذياع، بضغطة واحدة على زر التشغيل، يرتفع صوت الشيخ عبد الباسط مرتلاً، ترتّل وراءه، مسترجعة محفوظها القرآني الراسخ في الوجدان منذ براءتها، يتداخل في أذنها تجويد الشيخة "توحيدة"، الله يرحمها، كان ترتيلها نديا، وهي تعيد الآيات؛ والبنات الصغيرات يرددن وراءها في كتّابها، الذي كان في حجرة صغيرة يمين مدخل بيتها. ياه، ما أسرع السنون! في كتّابها كنتُ بضفيراتي المتدلية على ظهري، يزيّن أواخرها شريط قماشي زاهي الألوان. والآن، نفس الضفيرات تهتز على ظهور حفيداتي.

تعود "الحاجة بدرية" لصوت عبد الباسط، وهي تتعوذ من الشيطان أمام الحمام، تنتعل نعالا بلاستيكيا، تلجُ، وتكمل بنبضات ما بين ضلوعها."... من الخبث والخبائث".

تتوضأ، الماء بارد بين أصابعها النحيلة، العروق الناتئة بظهر كفيها، إنها السنون المتراكضة، عجبا من الجسد الذي يتلوى مع طيات العمر! وجهها في المرآة، خصلات الشعر الأبيض تحف بالتجاعيد الممتزجة بالملامح، كيف تُوقِف المرأة زحف الشيب، وانتفاخ ما أسفل الجفون؟! هل تعاند المكتوب؟ أم تبطئ مطايا العمر؟!

صوت الشيخ "أمين" - مؤذن مسجد قايتباي - يملأ السكون الفجري، رقيقا كالشمس الواهنة في ميلادها اليومي الذي ينتهي بشيخوخة في المغربية. ألا يحرّك العيون المطبقة، والأجساد الممددة على الأسرّة؟ لعلها تعلم أن السنين تساوي صلوات البكور. لسانها يلهج بألفاظ الآذان، التي تتابع آذان المذياع.

يصمتان، وترفع كفيها ثم تتلاحق الأدعية على لسانها، تتراءى الجنة في أعماقها: ورودًا ورياحين وقصورًا وأنهارًا، أتتقارب المسافة؟ ربما ..، تستعيذ من النار، تطيل في الدعاء؛ الرحمة لوالديها، والتوفيق لأبنائها، والمغفرة لزوجها.

تفرش سجادتها، تستقبل الكعبة، تحفظ هيئتها. لباسها الأسود وسط محيط أبيض، تسترجع آخر عمرة لها، كانت تسبح مع جموع البشر حول البناء الحجري المكعب، بوجدان مختلف.

"الله أكبر، بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله ..."

الركوع والسجود والقيام ثم التشهد والتحيات، تطيل كدأبها منذ بكارة سنيّها، بعضٌ مما ترسخ في وعيها من أمها، الله يرحمها، كانت إذا دخلت الصلاة، تنسى الدار والعيال، ولو هاجت البهائم ودخلت على أبيها في قعدته بالمندرة.

* * *

صوت أمها يناديها وهي في فراشها:

- "بدرية "، قومي؛ كفاكِ نومًا.

تتقلب الصبية، ذات الاثنتي عشرة سنة، على سريرها ذي القوائم الحديدية، ترفس اللحاف المحشو قطنا بقدمها، تتحسس شعرها الأسود المنسدل على كتفيها، تعاند أمها فلا تعقصه قبل النوم، فتصحو والخصلات متناثرة على وجهها الأبيض مسمسم الملامح. تدخل أمها. بدرية، قومي يا ابنتي، ميعاد مدرستك. تتثاءب الصبية وهي تسند ظهر كفها إلى ثغرها المفتوح، تردد:

- صباح الخير يا أماه.

- يسعد صباحك يا عمري، توضأي وصلّي، وأنا أجهز الفطور.

تقفز "بدرية" من سريرها، يأتيها الرد على قفزتها؛ صرير القوائم الحديدية، تبعد قماش "الناموسية"، وتفرد اللحاف على المرتبة القطنية المكتنزة، تطالع من النافذة - التي فتحتها أمها - ترعة بحر يوسف، وخيوطَ الشمس تتسلل من السحب ومن ظلامَ الليل المودّع؛ فيُصْبَغ الكون بالبنفسج

وتضاء الغرفة على استحياء. وهذه مياه "بحر يوسف" المخترق مدينة الفيوم ، والمتفرع من النيل العريض الذي يخترق بر مصر ؛ تسترجع ما تلقته في المدرسة.

ضجيج الباعة يتعالى في الشارع، يختلط مع أصوات أخويها؛ "أحمد" الذي سيصاحبها إلى مدرسته الابتدائية، و "رمضان" الذي سيتعلق بأمها وهي تودع ابنتها الكبرى ، وابنها الذي يليها إلى باب الدار، حيث تقف منتظرة حتى يغيبا عن ناظريها وهما في طريقهما إلى المدرسة، ثم تغرق الأم في شؤون بيتها.

صلّتْ الصبية، وضعتْ شطائر الخبز الساخنة في كيس ورقي، ثم أسكنتها حقيبتها الجلدية، وساعدت أخاها في تجهيز حقيبته القماشية، تنزل السلم الطيني الملتف في أعماق بيتها، فهي تسكن الطابق الثاني، ويحتل عمها الطابق الأول. يأتيها شجار زوجة عمها مع عيالها المعتاد، فيما يعلو صوت أبيها من زريبة البهائم، وهو يتابع تنظيف الزريبة:

- مع السلامة يا بدرية، عينك على أخوكِ يا بنتي.

- عيوني يا أبي.

- أعطِ " نكلة " لأحمد عند باب المدرسة.

- سأعطيه يا أبي .

يدها على كتف أخيها، إلى خارج المنزل الطيني، يأتيها صوت عمها الذي وقف أمام باب البيت الخشبي الكبير، وهو يقول:

- عشنا وشفنا البنت تتعلم، بدرية صارت عروسة، والخطّاب على الباب.

ترد أمها، الواقفة على الباب، بصبر:

- تتعلم أحسن ما تكون جاهلة... مثل أمها.

ينظر الشقيقان للأم التي وقفت مودعة أمام الباب، يعبران الشارع، متجاوزيَنِ زحام العربات التي تجرها الدواب، وبعض السيارات الضخمة، المتمايلة في سيرها ؛ لتعلّق الناس في جوانبها.

تنظر بدرية فلا تجد أمها التي دخلت البيت الطيني، مصطحبة رمضان الصغير. تتابع الصبية سيرها، وهي تضبط طرحتها حول رأسها، تصل أول شارع المدارس، الطلاب يغذّون السير، فيما اصطفت الأشجار على جانبي الشارع، وبدت مباني المدارس بلونها الأصفر. تبتسم الصبية وهي تتوقع تجمّع رفيقاتها في الساحة ؛ يتهامسن ويتضاحكن ويتغامزن. تُدخِل أخاها مدرسته، ثم تغدو إلى مدرستها الإعدادية. البنات في الساحة يتضاحكن، والمدرسون والمدرسات يتوافدون من باب المدرسة إلى مكتب المدير، في سيرهم الرزين، المدرسون ببدلاتهم الكاملة، والمدرسات القليلات؛ بعضهن يغطين شعورهن بإيشاربات قصيرة؛ لم تمنع بروز بعض الخصلات.

تتهامس البنات عليهن:

- كلهن من القاهرة .

- شوفي أبلة "جاكلين" مدرسة الإنجليزي من أيرلندا، وأبلة "إيفون" من المجر، وأستاذ "روبين" أبوه بولندي وأمه

إنجليزية، حكوا لنا عن حياتهم كلها في الحصص، وهم كلهم متخرجون في الجامعات.

- وجاءوا إلينا؟!

تحكي بدرية بثقة.

- أنا سألت أبلة إيفون عن السبب، فقالت لي: نحن ننشر ثقافتنا.

في أعماقها : "معقول يا بدرية! تصلين للجامعة؟ وأمك لا تعرف القراءة والكتابة، وأبوك يفك الخط ، ويحفظ القرآن بالسماع من الكتّاب"

دق جرس طابور الصباح، فأخرج الصبيّة من استغراقها، تجمعت البنات في طوابير، فيما وقف المدرسون أمامهن ينظّمونهن.

* * *

هاهي العجوز" بدرية " تحمل الماء وتصعد الدرج الخشبي إلى سطح بيتها، يتقافز الدجاج في أعشاشه، والبط

رابض في أقصى السطح، والصباح البنفسجي يمحو غبشة الليل.

الحركة تدب في الحارة، يأتيها صوت "أم مرسي" من السطح المجاور، يفصله السور ذو قوالب الطوب الأحمر وقد مال إلى السواد، بفعل الزمن وغبشة الظلام.

- صباح الخير يا حاجة بدرية.

- يسعد صباحَكِ ربنا.

- أنتِ تعاندين الحكومة يا بدرية؟

تضحك "بدرية" مدركة مغزي كلامها، تستأنف أم مرسي:

- أنا ذبحتها كلها ، وريّحت نفسي.

تتساءل بدرية بخبث:

- وطالعة السطح يا زينب؟! بعد ذبحها!

.....

- لماذا ...؟

- أشم الهواء؛ هواء البكور يرد الروح.

تضحك " بدرية "، وهي تغمز بعينها:

- يا "ولية" يا مجنونة، أنتِ حزينة على فراخك.

يتلون وجه "زينب"؛ فتردف بدرية:

- فراخي مثل عيالي، أحبها قبل ما أربيها، أنا أتعب لها؛ مياه وأكل وغلة.

تبتسم "زينب" وهي تغمغم:

-خفتُ من المرض، خفتُ على العيال، وعلى أحفادي.

- أنفلونزا الطيور ما وصلت بلدنا هنا، لماذا نخاف؟

تهمس بحزن أم مرسي:

- ذبحتها ورميتها.

تضرب "بدرية" صدرها:

- وهانت العشرة عليكِ يا ولية !

- هانت، وأول مرة أطلع السطح وألف وأدور وما عندي مياه ولا أكل ولا تزغيط للبط.

تنشغل "بدرية" بفتح العشة، تُخرِج أفراخها التي تندفع متزاحمة حول ماعون المياه، وصحفة الحبوب، وبقايا الأكل البيتي. تنظر "أم مرسي" للطيور المتدافعة، ترمقها "بدرية" والبسمة مهتزة.

تقول الأولى:

- أنتِ الوحيدة يا بدرية في الحارة التي تربين الطيور.

- معقول ، الكل ذبح ؟!

- نعم، يقولون إن الحكومة ستفتش البيوت والسطوح.

- لا تصدقيهم يا أختي، أنا أترك فراخي تبيت معي في الشتاء، تحت السرير، وأضع الكتاكيت في الدولاب.

أم مرسي متعجبة، وهي تتساءل :

- تنام معاكِ الفراخ؟!

- آه في الشتاء؛ البرد شديد عليها.

- أتعرفين أنني لا أذبح الأمهات؟

- تتـركين أمهـات فراخـك حتـى تسـمن ويكـون لحمهـا ماسخا!

تنقل "بدرية" بصرها إلى العشش الخشبية التي تراصت على السطح، وتحكي مسترجعة بتأنٍ :

- مرة، ذبحت ثلاث دجاجات، وكان بيضها قد فقس قبل الذبح بأيام، كان عندي بناتي بعيالهن ، يعني البيت زحمة ، فذبحتها.

- عادي يا أختي.

تواصل بحنو :

- ... وقعدت طول الليل أبكي عليها .

- لماذا ؟!

- شفتُ كتاكيتها تلتصق في بعضها و ترتجف من البرد، تذكرت أنها دون أمهات، بكيت، وأخذتها في حضني على السرير، ولمتُ نفسي أني حرمتها من أمهاتها.

تفرستها أم مرسي، وغمغمت:

- اليتيم يكون ضائعًا.

- هذا يتيم الأب أو الأم، أما أنا ... الله يرحمهما.

* * *

فتيلة مصباح الكيروسين تقاوم كتل الظلام، فيما تجلس الصبية "بدرية " تخطُّ واجباتها، تملأ أنفها رائحة الفتيل المحترق ببطء، الذي يتراقص في الزجاجة المحيطة به، فيبدو ضوؤه مائعًا وهو ينفذ من المحيط الزجاجي. تسعد عيناها من تراصّ الكتب والدفاتر بنظام اعتادته على الطاولة المصنوعة من الجريد، والمغطاة بمفرش قماشي مقلم بالأخضر . تستمتع الصبية بخطها الحسن، وتلك الأشجار والزهور التي تُحِفُّ بها صفحات كراساتها . ترسمها بالقلم الرصاص وتبالغ في منحها الظلال الغامقة ، وتتخيلها حدائق غناء، تلهو فيها.

الأم في الصالة، تتابع الرضيع "رمضان" الذي لا يكف عن الحركة،وصوته في علو مستمر. يسائلها "أحمد" الذي يسجل واجباته في دفتر خشن الغلاف، أصفر الورق.

- رمضان، ألا يخرس؟

- اسكت يا ولد.

- صدّع رأسي يا أمي.

- الصغار يزومون دائمًا.

الأب في الغرفة، يصلي ركعات الوتر، حريص أن تكون آخر يومه، يرفع صوته بالدعاء :

"اللهم بارك في عيالي، أعطني الصحة، ارحم أبي وأمي، استر بنتي بدرية في دنياها، وفق أحمد ورمضان ... "

انقطع الصوت، واستحال صوت الرضيع بكاء . انتبهت الأم:

- أبا أحمد.

.....

دخلت الغرفة، شهقتْ، ضربات على صدرها ، ركض أولادها، وظل الرضيع عالي البكاء.

الأب مسجى على الأرض، فيما السجادة التي اعتاد بسطها بعناية قد تلوّت تحته، وجهه لامع يعكس ضوء السراج الخافت ، المتراقص في الزجاجة القصيرة حوله. صرخات الأم الحادة أصعدت كل من في البيت، العم وعياله، وزوجته التي جاءت منكوشة الشعر. مددوه على السرير النحاسي، وركضت الأرجل تحضر بصلة مشطورة .. بخورا.. عطورا زيتيا . طغت رائحة البصل على دخان البخور، وامتزجت بالعطر القرنفليّ ، فتعبقت الغرفة برائحة الموت، تواصلت صرخات الأم.

ارتكنت بدرية في الصالة تبكي، لا تعرف كيف تولول مثل زوجة عمها، التي شقت ولولتها سكون ليل ما بعد العشاء. تجمّع الشارع، ووقف أحمد في النافذة الخشبية يطالع هؤلاء المتزاحمين أمام البيت، ارتكن على الإفريز العريض للشباك، لا يعرف - وهو ذو الأعوام التسعة - من كنه الأب الممدد دون صوت سوى أنه سيغادر الدار، على نعش خشبي، والناس من خلفه يوحّدون ويحوقلون، اعتاد أن يشاهدهم على الجانب الآخر من بحر يوسف، حيث باب

"الوداع" ، ثم القبور الترابية المتراصة ؛ و لا يبدو منها إلا حجر الشاهد الذي سيحرّكه "الترَبيّ" كي يدخل الجسد المكفّن في عمقه، ثم يغلقه، ويرش الماء، ويضع سعف النخيل الأخضر، وسيعود الناس أدراجهم إلى دنياهم، من المقابر المنبسطة إلى الحواري المتعرجة كالثعابين.

انتبه الطفل على خرخشة جلباب، التفت، أخته بدرية، تبكي دون صوت، التصقت به في النافذة، وجهها الأبيض محمر العيون، منتفخ القسمات، بفعل تتابع النحيب، اختفى جسدها الصغير تحت لون السواد، ارتدت "مَلَسا" من أمها، فبدى مهلهلا على أعضائها النحيلة . ارتفع نشيج الأخوانِ الساهمان ، دون أن يجد صدى بين العويل والولولة والصرخات التي ملأت الصالة، والسلالم، ومدخل البيت.

ساعات الليل أوغلت، الرجال قعود أسفل البيت، على المصطبة الطينية، ينتظرون شقشقة الصبح، خمدت الصرخات بفعل وهن الحناجر، بقي الرضيع "رمضان" وحيدًا باكيا .

.....

شقشقة الصبح، حملوا الجثمان إلى الدور الأرضي، حيث حضر المغسل "حميدة" بجسده السمين، دقائق، وأخرجوا ملابس الأب. جلبابا أزرق مقلمًا..، سمع الابن "أحمد" - من خلف الباب - الماءَ المنثال على جسد أبيه، واشتم العطر الذي ملأ الكفن، عطرًا ياسمينيًا هادئًا.

خرج عم "حميدة"، ثم اقتعد كرسيين خشبيين متجاورين، يمسح عرقه المتصبب، جلبابه مبتل، أبفعل العرق أم ماء الغسل؟! يرتشف فنجان القهوة السادة، وهو يستفسر:

- أين أم أحمد؟

ردّ العم متعجبًا:

- مع الحريم.

- أكلمها .. ممكن ؟

- ما الموضوع ؟ أنا أخوه الوحيد، أبونا ما خلّف إلا أنا وهو.

يرتشف "حميدة" القهوة السادة، وبهدوء أصرّ:

- أكلّمها كلمتين ؟

العم مغتاظًا:

- هل تأتي وسط الرجال هنا؟ أم تدخل أنت عند الحريم؟!

لوّح المغسل بيديه إلى من حوله من السامعين، فتحركوا خارجين.

- نادِ عليها .

تحرّك العم إلى الداخل، أشار لها، فجاءت متسندة على "بدرية"، كلتاهما حمراء الوجه، ترفل الابنة في الملس الذي طغى سواده على بشرتها البيضاء ، والعويل واللطمات تحيط بهما، نظر العم إليهما، ثم إلى المغسل الذي قال بحنان:

- أم أحمد، أحببت أن أبشركِ.

بصوت متقطع بالنشيج:

- خـ.. يـ.. ـرا!

- وجهه بدر منور...

- .....! (بكاء عال)

واصل حميدة بانشراح :

- ... مبتسم، وجسمه معطر بعطر ربنا، الله يرحمه.

بكاء عال، قطّعه صوتها:

- مات وهو في الصلاة.

- البشارة أمانة يا أختي، وأنا أبلغتك ما شفته.

التفت "حميدة" للعم:

- سلام عليكم، أنت شاهدٌ علي.

.....

تحرّك النعش، إلى مسجد قايتباي الأثري، الذي يتوسط ما بين البحر والحي، ويواجه باب الوداع من الضفة الأخرى للبحر. جموع متقاطرة، زاغ "أحمد" وسط وجوه جديدة ، أقبلت من الأحياء القريبة ، صلاة الظهر وتراص الصفوف ثم صلاة الجنازة على أبيه، صوت إمام المسجد بالتكبيرات

يـرن فـي جـوف المسـجد العتيـق المـزدان بالآيـات القرآنيـة، يـرتطم صـوته بالقبلـة الحجريـة، فيرتـد إلـى الآذان رائـق النبرات.

.....

الـنعش خـارج المسـجد، الأيـدي تتناقلـه، ثـم الأكـف تحملـه، عند باب الوداع، الكل يترحم، كـأن الـنعش يهرول، الصـغير أحمد بين الأرجل، لا يجد موطئًـا كـي يلامس الخشب الـذي يحمل جثمان أبيه .

* * *

اليـوم الجمعـة، شـمس الضـحى دافئـة، صـخبت الحـارة بصوت المارة، تطلعت الحاجة "بدرية" من شرفة البيت، فـي الـدور الثـاني، ابتسـمت وصـوت الجيـران يعلـو مشـتكين مـن قطع المياه، رنين الجرس، نظرت، ابنتها الكبيرة "دلال" مـع ولديها، يوم تجمّع الأسرة، ابنتيها وابنيها، وأحفادها. ألقت من الشرفة مفتاح البيت، فتلقفته الابنة، وفتحـت مـن الخـارج بـاب المنزل .

ارتقى الحفيدان السلالم، يطرقان باب الشقة، تفتح لهما الجدة، يدخلان متقافزَين، وأمهما من خلفهما، السلام بالعناق بين الجدة والابنة والأحفاد. تجلس الابنة، مسترخية على الكنبة في الصالة، تتحدث عن الزوج والأسعار والعيال.

الشجار المعتاد من البيت المقابل، صوت أبي محمود، إبراهيم الدالي، مع ابنتيه، يأتي شجاره من دكان البقالة القابع أسفل منزله:

- يا بنات الـ ....، نائمات إلى الضحى، وأنا قاعد في الدكان من صباحية ربنا.. واشتريت الفول والطعمية والعيش.

- أين الفطور؟

ترد ابنته متثائبة من بين السلالم:

- الآن يا أبي.

وقف وسط الحارة، ورفع رأسه وعقيرته:

- الآن؟! اشتريت الفطور من ساعتين، ماذا ستعملون للغذاء؟ نتغذى أذان العشاء، كل يوم هذا الهم؟!

- الآن يا أبي.

الأب يهدأ وهو يرى صينية تبرز من باب البيت الحديدي، يحملها ابنه الصغير.

- تعال، مصيبة أنت وأخواتك.

يتنهد، يتجشأ، يغمغم:

- الله يرحمها، أمهم، كانت تفهمني، قبل ما أصرخ.

من خصاص الشباك، دلال وبدرية تتابعان المشهد، ابتسما وهما تريان "عم إبراهيم" يقطّع الفلفل ثم يكوّن لقمة كبيرة من الخبز الحار، يحشوها فولا وفلفلا، ثم يلقمها فاهه، متلذذا بغمغمة صوتية.

همست الجدة:

- كبر عم إبراهيم، وصار على المعاش .

تهمس دلال:

- الله يعين ابنتيه، على صراخه وعصبيته.

تتساءل متعجبة:

- لماذا علا صوتُه في الحارة بعد وفاة أم العيال؟

ترد الحاجة " بدرية " بحزن:

- يا حبيبتي، الرجل منهم يظل متمردًا على أم عياله، ولما يفقدها، يشعر بقيمتها. الله يرحمها، تحملته وأغلقت بابها عليها.

- والبنات؟

- هن شابات، ما اعتدن على طريقته.

نزل الابن حاملا صينية الشاي إلى عم إبراهيم، البرّاد والكوب الصغير، يصب الشاي الأسود، ويضع النعناع فيه، ويرتشف بصوت عال، وهو يتجشأ.

- لماذا طلق زوجته الثانية يا أمي؟!

تساءلت دلال وهي تدخل مع أمها إلى صالة الشقة:

- لم تتحمله.

- وهو ...؟

- لم يتحملها، عصبية مثله .

- سأذهب للسوق انتظري حتى تأتي أختك "منيرة".

وضعت الطرحة السوداء على شعرها الأسود، فيما تعلق الحفيدان بأرجلها.

.....

جلبة سوق الخضار الذي يتوسط حي "الصوفي"، تسير بدرية الهوينى، تتأمل بعين فاحصة الباعة الذين افترشوا جنبات الشارع الضيق، يعرضون خضرواتهم، تفكّر في غذاء اليوم، أرادت شراء خضارًا منوعًا ؛ بطاطس للصغار، كوسة للحشو والطبيخ ، كرنبة كبيرة ، والطماطم والخيار .

- لم تذهبي للجزار يا نينه ؟! تساءل الحفيد .

- اليوم فراخ وبط.

تقافز الصغيران، تعلم عشقهما لأفراخها، يميزان - رغم صغرهما- طعم دجاج البيت، ويفضلانه على دجاج الجمعية، ومحلات الفراخ البيضاء التي ملأت البلد .

تطلعت في روحتها إلى الشمس، كانت في بداية الضحى، اهتزت نفسها، وارتجف جسدها، اقترب موعد زيارة مقابر عائلتها.

.....

- سأزورهم وأسلم عليهم.

ردت دلال على الأم التي وضعت أكياس الخضراوات المتخمة بما فيها.

- ارتاحي اليوم يا أمي.

- مشتاقة لأمي وأبي ... وأبيكم.

أردفت مشيرة إلى السطح:

- أمري إلى الله، أحفادي أولى .

ضحكت الابنة مدركة المغزى، لقد رضخت الأم للضغوط الحكومية والعائلية ونصائح الجيران:

- هل نويت ذبحها يا أمي؟!

- نعم يا دلولة.

- تضحّين بإخوتنا، فراخك و..؟!

تقاطعها الأم:

- اصعدي يا كثيرة الكلام للسطح.

- كم ؟

- اتركي الكتاكيت ، واذبحي الفراخ الكبيرة ، نتغدى ببعضها، والباقي خذوه إلى ثلاجاتكم.

الصغيران في جلبتهما، تتساءل دلال:

- ولماذا تتركين الكتاكيت يا أمي؟

بتعجب قالت الأم:

- ليس فيها لحما يا مفترية.

- وزارة الصحة تقول ...

أنا أدرى بعيالي من الصحة، كوّموا الفراخ في الثلاجات، الثلج يعشش فيها، وتأكلونها بعد شهور؛ نسيتم طعم الفراخ الطازجة.

أحكمت طرحتها السوداء حول رأسها، ورفضت برأسها تعلق الحفيد بها، نبهت الابنة وهي تنزل السلالم بخطواتها التؤدة.

- دلولة ، خذيها إلى محل الفراخ في آخر الحارة، واتركيها للعامل هناك ينظفهم بالماكينة .

* * *

تسير بتؤدة في الطرق المتربة المحفوفة بشواهد القبور، القبور غرف تتعمق الأرض، ولا يبدو منها إلا فتحة دائرية مغطاة بأحجار دائرية، كيف تبتلع هذه الفتحات الأجساد التي تملأ دنيانا صياحا وعراكا؟ ظل السؤال معها، في غدوها بين المقابر، يا لقلة الأرجل الزائرة! اليوم الجمعة موعد الزيارة الأسبوعية! الناس في لهوهم لا يذكرون أحبّتهم. تحفظ أقدامُها الطريق جيدًا، تتطلع - كالمعتاد - إلى مقبرة حملت لوحة محفورة الأسماء، ذوت ألوانها بمرور الزمن، فتبقى منها فخامة الحجر، وروعة خط الثلث المكتوبة به. "مقبرة آل صفوت"، ياه، صفوت باشا وزوجته مدفونان هنا. تحاكى

الناس بجمال المقبرة ؛ الشاهد واللوحة والغرفة المبنية في عمق الأرض. تفنن الباشا في بنائها، وكان يحاور من حوله:

- سيظل الناس يذكروني بها.

- صحيح يا باشا؛ أنت عالٍ في الدنيا وفي الآخرة.

- لو كانت الأمور بيدي، لجعلت مقابر عائلتي، في مكان خاص، بعيدًا عن قبور فلاحينا وخدمنا.

قال ماسح الجوخ الذي يسمعه:

- ومن اعترض يا باشا؟!

- مدير المديرية...، قال ليس في المقابر خصوصي وعمومي.

هذا ما سمعته بدرية من أمها، الله يرحمها، ويرحم أمواتنا، وهما في جلستهما بالنافذة، جانب القلل المعطرة بالنعناع، وحولما أصص الريحان الذي كان يستهوي الأم لتحكي بجانبه :

- كان بيت صفوت باشا قريبًا من بيتنا على البحر، وكنا نعرفهم، وسبحان من له الدوام؛ عائلة الباشا صفوت لم يبق أحد منها.

- لماذا يا أمي؟

- الدنيا لا تجتمع لأحد يا ابنتي.

تصمت الأم ثم تستأنف حديثها مع رشفات الشاي:

- كان همّ صفوت باشا المال، وأخذ الباشوية، كان أبوه "بك"، وأراد ابنه صفوت أن يأخذ الباشوية، واشتراها فعلا بعشرين ألف جنيه رشوة لحاشية الملك فؤاد.

- وصار باشا!

- وصار، وما أنجب إلا ولدًا واحدًا، سافر إلى أوروبا يتعلم، ولم يرجع.

- لماذا...؟

- يقولون مات، وناس تقول إنه تزوج بنت شقراء من أوروبا، وما رجع.

- بدرية مستفهمة:

- والأرض والبيوت؟

- توزعت على أقارب له فقراء، وسبحان العاطي الرزاق.

.....

وصلت "بدرية" إلى مقابر العائلة ، تتجاور فيما بينها الشواهد، تحفظ أرجلها مواقع كل قبر... ، ها هو قبر أبيها.

" السلام عليك يا أبي، يا حبيبي، الله يرحمك، ويحسن إليك في الآخرة. أنا وإخوتي بخير، نسلم عليك، اليوم ما حضر أحمد ورمضان، أحمد في شغله بالقاهرة، ورمضان سيسقي أرضنا اليوم، يشتغل بيديه وأسنانه، لأجل ما تبور أرضك، ولا يزرعها غريب " .

وأمام الشاهد المجاور، قبر أمها، تقف بدرية:

" أمي، السلام عليك ورحمة الله ، سامحيني أنت وأبي، الجمعة الفائتة ما جئت، كنت مريضة، على عيني يا أمي عدم حضوري ، ولكن كُبرَ السنِّ، يُضعِفُ البدن، وله حكمه،

وحكمُه يذل النفس، المرض ضعف، والإنسان أضعف يا أمي. إخوتي طيبون، يسلمون عليكِ أنت وأبي، أحفادك، أولادي، يسلمون عليكما، ودهم يشوفونكما، ولكن هذا قضاء ربنا ...، أنا على عهدك يا أمي، والتقصير ربنا يغفره .عهدك ما أنساه، في رقبتي، والله يشهد عليّ " .

* * *

هاهي الصبية "بدرية" تجاور أمها التي افترشت السرير، ورضيعها رمضان بجوارها، متعلق في ثدي الأم، يشدّ حلمتها ويصرخ؛ اللبن قليل. تأخذه الفتاة في حضنها، تلقمه الحلمة البلاستيكية من الرَّضّاعة، يلفظها، تحاول معه، يبعد فاهه ، تهدهده في حضنها، يهدأ الطفل، ويبتلع بصعوبة. الأم صامتة، تراقب الابنة التي استدار عودها، وبانت أنوثتها، "يحفظها الخالق"، تتراءى أمام عينيها السنون، الماضي والمستقبل، هل سأزوّجها؟ تستشعر الوهن في مفاصلها، كأن العظام تتفتت، والدم يجمد، برودة تسري في عروقها. تهمس لابنتها:

- بدرية، هاتي المنقد، وكسّري الحطب، وزيدي النار.

- عيوني يا أمي.

تنهض الفتاة، ممسكة الرضيع.

- هاتيه يا بدرية، أنا مشتاقة له.

تناولها، يتشبث الرضيع بالحضن الأمومي.

وضعتْ المنقد، واشتعلت النار، سرى الدفء إلى جنبات الحجرة، انعكس على وجه الأم، فاحمرّت وجنتاها.

- أنتِ بخير يا أمي.

- الحمد لله، أخوكِ نام.

- نام يا أمي.

- أشعر أنه انكسر منذ وفاة أبيك.

- صحيح يا أمي، ولكن حكم الله ...

- نعم، حكم الله نافذ.

تصمت الأم، تتطلع لوحيدتها.

- بدرية، سيكون الحمل ثقيلا عليكِ.

- أنا أخدمك برموشي يا أمي.

- المهم تخدمين إخوتك؛ هم أمانة في عنقك يا بنتي.

- ربنا يعطيك الصحة، حتى تزوجيني يا أمي.

تغيم عينا الأم بالدموع المتلألئة في وهج النيران فبدت كالدم القاني

- سهم الله نافذ.

دبيب الخوف في عيني الصبية، لم تجد ما تقوله.

- بدرية، أنتِ مكاني، جسمي ما تحمّل فراقه، فراق أبيك الطيب

استجمعت الصبية هواء حلقها لتنطق:

- الدكتور طمأننا عليكِ، كله ضعف وما عندك مرض.

أمسكت الأم الواهنة اليد بكفّ ابنتها، استشعرت البنت برودتها، نظرت للمنقد، النار ذوت.

- سأزيد الحطب يا أمي.

- لا داعي.

- جسمك بارد.

- السهم نافذ.

انفلت الكف الصغير من الأصابع المتصلبة للأم، نظراتها مفعمة بالرجاء، لعلها تتجاوز السقف الخشبي إلى السماء، تمتمتها دعاء، تقول بلهاث متتابع:

- " بدرية، عدّليني ناحية الشباك الشرقي".

" آه، نفس الناحية التي كان عليها أبوكِ".

" بدرية، إخوتك أمانة، أمانة ربنا لكِ يا ابنتي".

ضربات على صدر الصبية، أرادت الصراخ، برودة جسد الأم تتسلل إلى جسدها؛ فتشعله نارًا.

بدرية، قطّري مياه في فمي بأصابعك يا ابنتي، قطّري، قطّري.

حركات البنت لا إرادية.

- أنادي عمي يا أمي.

- لا وقت، أبوك منتظرني، وأبوي وأمي، كلهم واقفون، يشيرون إليّ، أنا قادمة، الدنيا أخّرتني عنكم ...، قرّبت منكم...

اهتز الفم بالشهادتين، لمعت الوجنتان براحة إيمانية، انتفض الجسد، سكن. الصبية أمامها جاثية، الصراخ عالق في صدرها، الرضيع عالي البكاء.

.....

خرجت زوجة المغسّل "حميدة"، يفوح عطر العود من ثوبها الأسود، تفحصتها بدرية، كانت منبسطة القسمات، نظرت إلى زوجة العم، وهمست :

- الله يرحمها أم أحمد، بشارتها خير.

ردت زوجة العم:

- كانت طيبة، ولا يخرج العيب من لسانها.

الرضيع تتناقله الأيدي، استقر في يد أخته، التي حضنته، وهي تعطيه حليبا بالـ "البزازة"، شعرت بجسده الصغير المشتاق لحضن أمٍّ، ودعته مبكرًا، اشتد بكاؤها،

ممتزجًا ببكائه، النعش الخشبي يستقر في دهليز البيت السفلي، تحمل الأيدي الجثمان الملفوف بالكفن، الكفن يشي بنحولة الجسد، يستقر بحنو، أولادها حولها، بين الأرجل المتزاحمة لا تظهر مآقيهن السابحة في الدموع، تطلع أحمد محاولا النظر للجثمان قبل استقراره في النعش، تداخل السواد بالبياض في عينيه، سواد عباءات النسوة، وبياض الكفن، صرخات النسوة تلاحق النعش المغادر للدهليز، اتجهوا به إلى مسجد قايتباي.

.....

بِقيَت بدرية مع الرضيع في البيت، وسط نسوة أقعدهن السن عن متابعة الجنازة، فاكتفين بالعويل، وهن ينظرن لهذه الصبية التي ارتكنت جانبا، ممسكة بأخيها، يبكي مع بكائها، يتأملن جسدها النحيل الذي يهتز وسط السواد، يهمسن:

- لم تمر شهور على وفاة أبيها، ثم ماتت أمها.

- الله يرحمهما.

- أبوها كان صالحًا؛ بين المسجد والأرض والبيت فقط.

- وأم أحمد طيبة، كانت في حالها.

- سبحان من جمعهما، طيبتهما واحدة.

- ماتت حزنًا عليه.

- قدر ربنا وقضاؤه، كلنا سنذوقه.

نظرت إحداهن إلى من حولها :

- كلنا نوصّل بعضنا.

تردف مستشعرة الدنية:

- يا رب أحبائي يحملوني ولا أحملهم.

تغيّر النبرة إحداهن، وهي تعدد:

- أم أحمد، كانت شابة.

- والعيال أولادها، من لهم ؟ الأب والأم راحا في شهور؟!

- لهم ربنا.

- وعمهم موجود معهم في البيت.

.....

في المقبرة، أحمد يتأمل جسد أمه الضعيف وهو ينزلق إلى فتحة القبر، حمله الدافن بين يديه، وهو يلج بظهره القبر. قبرها مجاور قبر أبيه، يصل إلى سمعه كلام أحد كبار السن في الحي:

- مقبرة هذه العائلة إذا فُتِحَت، لا تغلق قبل أن تبتلع اثنين أو ثلاثة، في فترة قريبة.

- يا عم الحاج، هذا قدر ربنا، والعمر وحده بيد الخالق.

- آمنا بالله، هذا ما شفته في حياتي وعشرتي معهم.

صاح أحدهم:

- استغفروا لها، فإنها تسأل الآن.

كان "التُرَبيّ" يرش الماء على القبر، ويسوي ترابه بيده، أحمد يطالع ونفسه تنزف دمعا؛ اختفى الجثمان تحت هذا الركام ، ولن يتسنى الوصول له ، فالحجر ثقيل محكم على عين القبر. كيف أغلقوا عليها هذا القبو المظلم وبقيت وحدها؟!

.....

تلاشت أقدام المعزين، وعاد كلٌ لدنياه، وهاهن صديقات الأم ينشغلن ببيوتهن، ويعدن إلى العناء. الأبناء الثلاثة في الدور الثالث، طعامهم مع أبناء عمومتهم، تاهوا وسط البنين والبنات، و صراخ زوجة العم، قال العم لبدرية:

- تقعدين في البيت، تشيلين أخوكِ الرضيع.

- والمدرسة؟ أنا في الإعدادية.

- وأخوكِ، نرميه في الشارع ؟

- أقعد السنة هذه، وأكمل السنة القادمة.

- لا، تقعدين إلى آخر العمر، وسنة أو اثنتان ونقبل العرسان.

منعتها حركة الرضيع على يديها من مواصلة الحوار، بينما عاد عمها إلى تقطيبته المعتادة، وهو يزفر دخان سيجارة ملفوفة؛ تساقط منها الجمر في كتل، امتصت بدرية المزيد من الدخان، قَدِمَ أخوها أحمد، حاملا حقيبته المدرسية القماشية، تطلع إليه العم:

- يا أحمد، يا ابن أخي، الأرض محتاجة لك.

نظر الصبي إليه، ونشّف عرقًا متكاثفًا على جبينه، وسكت. رفعت بدرية صوتها مدركة قصد العم:

- لا يا عمي، أبي الله يرحمه، كان يتمنى أن يشوف أحمد متعلمًا.

- والأرض؟

- ترعاها يا عمي، وتكتري لها فلاحين، أحمد مثل عيالك.

- يطلع من المدرسة يا بدرية، المدرسة تحتاج مصاريف.

- لا يا عمي، ورثنا من أبينا ستة فدادين، كثير والحمد لله.

تطلع أحمد إلى شقيقته، كانت عيناها ممتلئتين عزمًا، أحس أنها تحميه من مجهول، انطلق يقول:

- يا عمي، أنا شاطر في الفصل، سأتعلم.

قالت بدرية وهي تهزّ الرضيع:

- وأنا أرعى إخوتي، في شقتنا لوحدنا ...

قال العم باستهزاء:

- وتتركين شقة عمك ؟!

قالت بحياء مصطنع:

- أنا كبرت، وعندك أولاد كبار، وعيب نعيش في شقة واحدة.

ثم أردفت بتحذير:

- أو نذهب نعيش عند أخوالنا وهم يرعون أرضنا.

انتبه العم للمقولة:

- أنتِ أخت لعيالي، وأنا الوصي عليكم.

- إذن ، نكون في حالنا أحسن، تعطينا مصاريفنا من حساب الأرض.

همس العم بلين:

- الدار كلها خير، وأي شيء عندي يا بنتي، أنتم عيالي.

ارتكنت البنت للصمت، وأحاطت "أحمد" بذراعيها وهي تقول:

- تعال يا أحمد، اتغدَّ، واستعد للمذاكرة.

ذراعها حانية على كتفه ، مشرّبة بدفء الأم.

* * *

ما يحدث كل يوم :

تستيقظ الصبية، على نداء زوجة عمها، قبل أذان الفجر، تنزل السلالم حاملة السراج، إلى الزريبة، فتحلب الجاموسة، وتضع لها البرسيم، وتنزح من تحتها... ، تحمل الحليب الدافئ إلى شقة عمها في الدور الأول، تفتح لها ابنة عمها الباب وهي تتثاءب، تناولها بدرية إناء الحليب، فيما تحتفظ بدرية لإخوتها بإناء آخر أصغر.

مع إغلاقها الباب، ينتبه أحمد من نومته، يؤدي طقوس يومه، ويخرج مع خيوط الأشعة الأولى ، مرتديًا مريلته الكاكية. يضحك لأخته وهو يقبّل جبينها، يعلم أنها تعشق الكراسات والكتب.

تعود الصبية إلى أخيها الرضيع، تهدهده، فيقوم ضاحكًا، تتكسر الكلمات على شفتيه، تتذكر سؤالها لأمها:

- أمي ، بيني وبين أخي أحمد سبع سنين، وبين أحمد ورمضان تسع سنين، وزوجة عمي تنجب كل سنة عيلا .

تضحك الأم وهي تحتضن الصبية وتقول:.

- أنت صغيرة يا حبيبتي على هذا الكلام، أنا حَبَلي عزيز، وهذا من الله، والعيال رزق ربنا يعطيه.

.....

نادتها ابنة عمها:

- أبي يريد أن يتحدث معاكِ.

- خيرًا.

- تعالي، هو قاعد في المندرة يشرب الشاي.

العم ممدد الساقين في المندرة، ورشفاته من الشاي تغطي على ضجيج الشارع، بينما افترشت زوجته شلتة عريضة بجواره، قال العم:

- مبارك عليك يا ابنتي.

توجسٌ في قلبها، تساءلتْ:

- على ماذا يا عمي؟

قالت الزوجة بابتهاج مصطنع:

- "على عَدَلك" يا حلوة، جاءك عريس، من أقاربنا في "دِفنو"، بلدهم قريبة من الفيوم.

بسرعة، يتراقص المستقبل أمامها. زوجة في بيت كبير، تخدم أهل الزوج ، أتترك إخوتها؟ اعتلى الرفض ملامحها، فهزت رأسها بالنفي.

- ترفضين الزواج.

- نحن أعطينا كلمة.

- هل تصغّرين عمك؟

قالت الصبية التي حنّكتها سنوات منذ وفاة والديها:

- لن أترك أحمد ورمضان.

- يعيشان مع عيالي.

- لا، أنا أخدمهما حتى يكبرا ويتزوجا.

- وزواجك؟

- أنا معطية عهدًا لأمي، الله يرحمها.

نظر عمها إليها، يحفظ جيدًا ملامح إصرارها، يخشى أن تشكوه إلى عيال عمه (أخوالها)، وإذا جاءوا سيكون هناك كلام آخر عن الأرض.

.....

جاءتها زينب، وقد بدت السعادة عليها، تطلعت بدرية لوجهها المضاء، فاستفسرت بخبث:

- حصل؟

ابتسمت الثانية بحياء:

- ماذا تقصدين؟

- الخطوبة.

هتفت الصديقة بغضب:

- بدرية، لن أزورك ثانية .

في جنبها، وخزتها بدرية، وهي تقول:

- أنا أحفظكِ.

أقرت زينب بحياء:

- وماذا فيه؟ حدث وتقدم واحد من أبناء عمنا، وأبي قبله.

- أخيرا وافق أبوك.

تنهدت زينب وهي تقول:

- نعم، أخيرًا، بعدما أطار مني عرسانا أشكالا وألوانا.

- الزواج قسمة ونصيب، وأبوكِ يريد مصلحتك.

رشفت زينب رشفة من الخشاف الذي قدمته بدرية وهي تقول:

- أبي رفض الموظف والتاجر وصاحب الأرض، وحجته أن هؤلاء ليسوا من أقاربنا، الله يسامحه.

بخبث سألتها بدرية:

- ولماذا قبلتِ هذا العريس؟

تابعت زينب رشف الخشاف، وهي تنظر في وجه رفيقتها.

- هل أبقى طول عمري دون زواج ...، دون رجل؟!

أطرقت بدرية حياء، فاقتربت منها الصديقة وهي تقول:

- الحقي نفسك يا أختي، أنتِ أكبر مني، والزواج قطار، تركبينه أو يفوتك.

بجد ردت بدرية:

- وأترك أخوتي لعمي يتحكم فيهم؟

- إخوتك كبروا، رمضان في المدرسة الابتدائية، وأحمد ما شاء الله في الثانوية يا بدرية، اسمعي كلامي، أنتِ حلوة.

لوّنَ الحياءُ وجهها الأبيض، نفس ملامح أمها، مع استدارة في الوجه، همست بدرية وهي تتطلع لصديقتها:

- من يقبل بنتا في الخامسة والعشرين؟!

- لا تخبريه عن عمرك.

استنكرت بدرية:

- أكذب عليه!

ثم واصلت بحسرة:

- أنا يا أختي القطار فاتني، ويكفيني أني حميت إخوتي وربيتهما، أنا أمهما وأبوهما، يكفي يتمهما من صغرهما.

حضنتها زينب بحنو، وهي تقول:

- أجرك عند ربنا.

زفرت بدرية زفرة طويلة وهي تقول:

- من يقبلني مع إخوتي؟!

تعجبت زينب:

- وهل تريدين أن تتزوجي بإخوتك؟

- طبعا، أين أتركهما؟ أنا اشترطت على عمي أن يعيش إخوتي معي في البيت، أنا أمهما.

- معقول! وهل هناك من يقبل؟

- لا أعلم، كل العرسان يأتون لعمي، وأنا شرطي واضح.

قامت زينب وهي تقول:

- يا حبيبتي عمك مستفيد، هو بالع خير الأرض في بطنه.

- أعرف يا أختي؛ لأنه الوصي علينا.

- هو يخاف أن يأتيك عريس ويجادله في الأرض والميراث. أنا رأيي أن تتزوجي، واطلبي أن يعيش العريس هنا، معكم.

- معنا ؟!

- آه، وسيرحب، بيتكم واسع، وأنت في شقة مستقلة عن عمك،

وأكلكم مستقل، وستوفرين عليه إيجار السكن.

ابتسمت بدرية، فالحل جديد، وتعجبت:

- ومن يقبل ؟!

- كثير يا أختي، وأخبري عمك بهذا الشرط.

ثم استأنفت بسرعة:

- لا، أنا أخبر أبي، وأبي صاحب أبيك الله يرحمه ومن العائلة، وهو يتكلم مع عمك والأقارب.

- كلام فارغ، أنا كبرت، من يقبلني بإخوتي و...عمري؟!

ثم ضحكت وهي تقول:

- أنتِ عجيبة يا بنت، الزواج لحس عقلك.

- وسيلحس عقلك أنت الأخرى.

- اتركيها لله، يدبرها بحكمته.

.....

يوم الجمعة، العصر، كانوا قد فرغوا من الغذاء، بدرية وأخواها. طرقات على باب شقتهم، فتح رمضان.

- أهلا يا عمي.

- كيف حالك يا رمضان؟

- بخير الحمد لله.

- أين أختك؟

- جاءته من الداخل وخلفها أحمد الذي بانت شواربه.

- تفضل يا عمي.

- تعيشين يا عروسة.

يجلس، على الحصيرة، وهو يقول:

- بدرية، فيه عريس متقدم.

عقد الحياء لسانها، فلم تجب، واصل العم حديثه:

- من عائلتنا، الأستاذ نادي ابن الحاج علي.

صمتها حياء، تعرفه، يسكن في عمق حي الصوفي، أبوه رجل طيب، المجبراتي، آخر من كانت تتوقعه.

- ما رأيك يا ابنتي؟

- وإخوتي يا عمي؟! أنت تعرف ظروفي.

نظر لها بحنان، وهو يقول:

- يا بنتي، أنتِ أمانة، والعمر يجري، بي وبكِ، والعريس شاب طيب، وقرابته قوية من جهة أمي، جدتك الله يرحمها، يعني نعرف أصله وطبعه...

- وإخوتي؟

- العريس وافق على شروطك، سيعيش إخوتك معكما.

- وكيف عرف شروطي؟

ابتسم العم وهو يتجشأ:

- أخبرني ابن عمنا، أبو صاحبتك زينب، وأنا قلت هذا للعريس، ووافق، هو مدرس ابتدائي ولا يزال في أول طريقه.

تدخل أحمد، بينما رمضان يرهف سمعه:

- تقصد يا عمي أنه سيعيش معنا هنا؟

- نعم يا أحمد، وهو قريبنا في النهاية، ورجل طيب يصون العشرة .

أردف وهو يتطلع للعروس الخجلى:

- ما رأيك يا ست العرائس؟

الحياء... ، ولكنها استجمعت ما تبقى في أعماقها من هواء كي تخرج لفظًا.

- طيب.

اختلج صدرها، شعرت أن الدنيا لها طعم آخر.

سيأتي غدًا مع أمه وأبيه ونتكلم.

.....

جلسوا في مندرة شقة عمها، العريس وقد بدت السمنة عليه قليلا، وأبوه الأسمن منه، بينما أمه أكثر نحافة. كان العم مرتديًا جلبابًا جديدًا، وجلس أحمد، ووقف رمضان خارج الغرفة مع أبناء عمه، فيما حضر خال بدرية. الحوار متصل بين الحاضرين.

- والله أحسن نسب.

- وابننا " نادي " زينة شباب الحي كله.

- يا أهلا وسهلا يا جماعة الخير.

- ابنتنا " بدرية " ضحت كثيرًا من أجل إخوتها.

قالت أم العريس:

- أين العروسة ؟

ردت زوجة العم:

- تأتي الآن، هي مع بناتي بالداخل.

وقفت وهي تقول:

- سأنادي عليها.

قدمت العروس، الخجل متلألئ على وجنتيها، جلست، تأملها العريس، وجهها دون مساحيق، وقد لفّت رأسها بشال قطني، أسفله ثوب فضفاض. تعجب، فله سنوات لم يرها، فقد آلت ألا تنزل من بيتها إلا لضرورة.

احتال أن يراها خارجًا فلم يستطع، فاكتفى بما وصِفَ له. قبلات من أمه على وجنتيها، في حين قبّلت بدرية رأس الأم.

جلست بدرية، عيناها للأرض، تتطلع نحوها "نادي"، حمد ربه أنها أفضل ممّا تخيل، استشعر الجَدَّ في عينيها، كيف حملت عبء هذين الأخوين طيلة السنين الماضية؟

نظرت نحو أهل العريس، الطيبة تمتزج بقسماتهم، وابتسامة رضا تتخاتل في عيني العريس، التقت نظراتهما،

هو كما هو في طفولته، كان هادئ الطباع، يميل للسكينة والصمت، ولا يعارك الأولاد. عرفته، منذ غدوها وهي طفلة إلى حي الصوفي مع أمها للتسوق، كان يقف مساعدًا لأبيه المجبراتي في دكانه.

قالت أم العريس وقد بدا عليها السرور:

- والله يا بنتي، ابني يتمناك من زمان، ولكن المشكلة أنه في الجيش، أمامه سنة وينهي خدمته.

أردف أبوه الحاج علي:

- أنا أجّلت الزواج منذ أن أنهى دبلوم المعلمين، قدامه خدمة الجيش، صحيح تعيّن شهورا في المدرسة الابتدائية، ولكن ...

صمت الوالد يبتلع ريقه، فأوضح الابن ناطقًا للمرة الأولى:

- استخرت ربنا وقررت الزواج، كلها سنة، نكمل فيها التجهيزات ونتزوج إن شاء الله.

قال الأب وهو ينهي الجرعة الثالثة من كوب ماء:

ـ أنا أحب الشاب الجاد، وقد لقيته عازمًا في الموضوع، قلت له: على بركة الله يا بني. قال: آخذ بدرية، قلت له: اختيارك زين.

أكدت الأم بابتسامة عريضة:

ـ نعم، وأنا قلت له: زين ما اخترت يا بني، أميرة وأمها الله يرحمها كانت الطيبة كلها.

هتف الأب بتؤدة:

ـ وأبوها، نعم الرجال، الله يرحمه.

قال الخال الذي لاذ بالصمت طول الوقت:

ـ الله يرحمها، أختي كانت ستنا، وبدرية صورة منها.

ثم التفت الخال لبدرية:

ـ لم تتكلمي يا عروسة حتى الآن!

وجهها بحيرة دم، أسرعت بالانصراف؛ ابتسموا، وقال العم:

ـ نتكلم في المهم ؛ الشبكة والمهر وغيره.

أجابه الحاج علي:

- ابنـي سـيدفع مهـرًا، خمسـين جنيهـا، ونشـتري شـبكة بسيطة، هو

لا يزال في الجيش، ومصاريفه عليّ.

تعجبت زوجة العم:

- فقط !

أجابت أم نادي:

- كل الناس على هذا الاتفاق.

أكّد زوجها:

- نعـم، وابنـي لا يعـاب، مـتعلم، ومـدرس فـي الحكومـة، وأصله كريم...

تدخّل العم:

- ونحن نشهد له، ونحن نشتري الرجال والأصل؛ ولكن المهر لا يكفي للجهاز ولازم نكمّل عليه، وأنا عيالي كثير،

ومضطر أن أبيع جزءًا من أرضها هي وإخوتها، حتى أجهزها.

لفّ الصمت الوجوه، قال الحاج علي:

- براحتكم، هذه ابنتكم وهذا مالُكم.

أعجب القول العم، فقال:

- أنا سأبيع فدانا أو فدانين، وأقول هذا من الآن وقدامك، حتى لا يراجعني أحد بعد ذلك.

تغيّر وجه الخال، وقال:

- وأين ريع ستة فدادين طوال السنين الفائتة؟

الغضب على وجه العم.

- ذهبتْ في مصاريف عيال أختك، وهم عيال أخي وأولادي،

ولا تنس أن الأرض شقاها كثير، ومصاريفها أكثر. وما سأبيعه هو حقها في الميراث.

بحزم قال الخال:

- لا، لا ينفع الكلام هذا.

اتجه بالقول إلى العريس وأبيه:

- اسمع يا بني، أنا أقول لك كلمة.

الحاج علي مشيرًا بيده:

- تفضل...

- ابنك قَبِل أن يعيش هنا في الشقة مع بدرية وإخوتها؟

- صحيح.

- إذن، بدلا من بيع الأرض، نبقيها لها ولعيالها، وهو يعيش على أثاث أختي المرحومة، وبدرية كانت محافظة عليه.

تدخلت أم نادي:

- ابني يتزوج على "عفش" قديم!

قال الحاج علي متفكرًا:

- كلام معقول، الأرض باقية، والعفش يفنى.

ابتسم الخال وواصل:

ـ والمهر يكون لتجديد العفش، وتبييض الشقة، وأنتم قلتم إن الشبكة بسيطة، إذن الموضوع سهل ومحلول.

العم مستسلمًا:

ـــ وكلامكم مضبوط، أنا قلت أعرض رأيي، وأستشيركم،وما تتفقون عليه ألتزم به ، هم أولادي.

الحاج علي والخال في صوت واحد:

ـ نقرأ الفاتحة. " بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله ... "

دوّت زغرودة من عمق الدار، ثم تبعتها زغاريد أخرى.

وأقبلت العروس ترفل في حبور، حاملة صينية الشربات، فتقارب لونه القاني مع احمرار وجنتيها.

* * *

وضعت العجوز بدرية جَريدة خضراء كبيرة على القبور الثلاثة، وهي تغمغم مسترجعة أياما تحيا في أعماقها.

" ياه، الدنيا عجيبة، نظن أننا نتحكم فيها وهي سائرة بنا ، يا أمي ويا أبي، أولادك كلهم صالحون، وأنا ـ ويشهد ربنا ـ أدعو لكم في صلاتي، وهذا ما ما أملكه".

الفصل الثاني

لَفحُ شمس الظهيرة

وقفتْ أمام قبر "نادي"، سوّت التراب بيدها، ثم جلستْ، اشتدت قليلا أشعة الشمس، فلفحت وجهها. تناهى لسمعها الأذان الأول للجمعة، من بيوت العمران، بدأت أقدام الزائرين تدب عائدة، فضّلت أن تجلس قليلا، شعرت بالشوق إليه ... زوجها.

"كان المشوار طويلا يا نادي، والحمد لله، عشتُ حتى أديت الأمانة، المهم أن يرضى ربنا عليّ، ولما أشوفك في الآخرة، في الجنة إن شاء الله، ربنا يجمعنا، سأحكي لك كل شيء، أنا عملت ما قدرت عليه، والقدرة من ربنا، لو كان فيه شيء بيد العبيد، كنا لجأنا لهم، والحمد لله، حكمة ربنا وعدله، جعلت الرزق والعمر بيده سبحانه، أنا الآن جِدة، وأنت جِد يا نادي، نفسي تشوف أحفادك، صاروا عشرة بفضل من ربنا، الولدين والبنتين تزوجوا كلهم من فضل الله. حياتنا، أنا وأنت، أيام وسنوات مرسومة في وجهي، الله يرحمك، كنت سلوتي، تحكي لي كل شيء، عندما ترجع لبيتنا، صحيح كان كلامك قليلا، ولكني ألاحقك بالأسئلة، ولم تكتم عني شيئا، الله يرحمك "

تبتسم في سرها، مسترجعة كلماته :

-"يا بدرية أنا أحكي لكِ المفيد، وأنتِ تريدين التفاصيل"

" كنت حكيما يا نادي في كل كلمة "

تسكت ؛ شعرت بجفاف في حلقها، فأخرجت زجاجة ماء من كيسها، وبسملت ثم تجرعت مرات.

ابتسمت، كان أبناؤها - إذا صحبوها في الزيارة - يعاتبونها على جهرها بالقول على القبور الثلاثة.

- يا أمي، الناس تنظر لكِ، لا يلزم الصوت العالي.

تتعجب ابنتها وتقول:

– هل واجب عليكِ أن تعطي تقريرا مفصلا عن حياتنا لهم ؟

هم أموات يا أمي، يكفي الدعاء.

ترد الأم مبتسمة:

- لو كان كلامكم صحيحا، ما أمرنا نبينا عليه الصلاة والسلام أن نزور قبورهم. أنا أرتاح عندما أتكلم معهم، أحس أنهم معي، أحيا بأنفاسهم.

أعادت زجاجة الماء البلاستيكية إلى الكيس، ثم غمغمت:

" اليوم، ما جاءوا معي، أنا معكم، أحكي، وأتكلم.

كيف حالك يا نادي؟ عاصم وعمر ودلال ومنيرة يسلمون عليك عاصم وعمر الآن يستعدان لصلاة الجمعة، يتذكران كيف كنتَ تأخذهما إلى جامع الصوفي، وكيف كنت تضربهما على الصلاة. صحيح، الدنيا شغلتهم، لكن البذرة في نفوسهم كلهم طيبة. ما نسيت وقفتك يا أبا عاصم، معي أنا وإخوتي..... أحمد ورمضان، وهما يترحمان عليك دائما " .

* * *

كان العرس بسيطًا، في شقة العم. العروس في فستان أبيض وقد لفّت طرحة حول رأسها، وتجملت، وأحاط بها النساء، والتصقت بها رفيقتها "زينب"، فيما غنت الفتيات وأطلقت الزغاريد. بينما العريس في تجمع أهل الحي كلهم،

أعلى السطح، والمهنئون حول الموائد المبسوطة، فقد نحر العم خروفين للمناسبة. كان أحمد ورمضان بين الناس، رمضان يلهو متنقلا بين النساء والرجال، فيما أحمد يخدم الضيوف، حامدا ربه أن أخته تزوجت، فقد سمع زوجة عمه تهمس لإحدى الجارات. "بدرية مجنونة، فاتها القطار، وإخوتها سيتزوجان وتظل هي عانسًا، خدمت إخوتها، وستخدم زوجتيهما". شعر بغصة في حلقة، وكتم عنها رغم حرصه أن يحكي لها كل شيء.

كان قد حضر كتابة العقد في مسجد الصوفي عقب صلاة العصر، عمه وكيل عن العروس، والحاج " علي " وكيل عن العريس، غمره السرور واحتضن أخاه الصغير الذي يرفل في بدلة جديدة، واسم أخته يتردد مرات في مسمعه، ثم مقولة المأذون المألوفة:

ـ " زواج مبارك إن شاء الله "

دوّت الزغاريد، والعريس المتأنق ببدلة سوداء، ينزل إلى العروس، يُلبسها الشبكة. أسورة مكتنزة، ذات زخارف

لولبية، وخاتمين، ودبلة، أخته ضاحكة، أول مرة يراها أحمد بهذا الوجه، كانت دائمًا : الحزم والحنان في آن، تضرب رمضان عندما يوسخ ملابسه من اللعب في الشارع، وتعارك أحمد عندما يضيع نهاره في لعب الكرة " الجلّة " .

* * *

ـ كلها شهران وأنهي خدمة الجيش يا بدرية.

قالها "نادي" وهو يغسل يديه بعد الغداء:

ـ بسيطة يا نادي، تذهب وتعود لنا بالسلامة.

ـ بودي أنهي الخدمة، حتى أريح أبي من مصاريفي، وأعود إلى شغلي في المدرسة.

ـ هانت ... ، لا تحمل هما، مستورة الأحوال.

نظر لها "نادي"، ثم تطلع حوله، كانت الصالة فارغة من أخويها.

ـ أحب يا بدرية أن أنفق على بيتي، أرجوكِ افصلي بين مصاريفهما ومصاريف بيتنا، أنت مسؤولة مني الآن.

ضحكت الفتاة، فقد خَبِرَته، حساسًا من مال إخوتها، رفض أن يتولى متابعة الأرض، وطلب من عمها الاستمرار، بحجة أنه في الجيش، ومدرس لا وقت عنده.

أمسكت بطنها وتصنعت التعب، اقترب "نادي" منها:

- قلت لك استريحي.

- نفسي أشوف ابنك .

- ربنا يلطف، وتقومين بالسلامة.

* * *

أمام القبر، سوّت الجريد الأخضر، وعقصت السعف، فاتخذ شكل الزهرة الكبيرة، أعجبها، تذكرت كيف كانت أشطر البنات في فصلها في الرسم والأشكال الفنية . تتذكر الأبلة "الواحظ" مدرسة التربية الفنية، وهي تثني على ما تقوم به من أشكال مصنوعة بالخشب المكسّر، أو إجادتها شغل الإبرة. تصنع المفارش، وتطرز بخيوط "الكانافاه". علّمت ابنتيها كل ما اختزنه عقلها طيلة سنوات مكوثها في المنزل، كانت تكرر على مسامعهما. "كل ما في المحلات

من ملابس جاهزة، ممكن للبنت الشاطرة أن تصنعه، وتوفر لبيتها ثمنه". لم تصدق ابنتها دلال وهي في المرحلة الإعدادية هذا الكلام، فطلبت أمها منها أن تختار ما تريده من المحلات، واختارت فعلا دلال بلوزة مصنوعة من خيوط الكانفاه المزدانة بألوان فوسفورية، كان ثمنها أربعون جنيها. اشترت الأم الخيوط بستة جنيهات، ورسمت على الورق المقوى شكل الفستان، ولونته بأقلام الشمع، ثم شرعت تصنعه بالإبر مع ابنتها، أسبوع وكانت ابنتها ترتدي البلوزة وهي تقبل رأس الأم. قالت بدرية وهي تعانق ابنتها:

- هل تستطيعين أن تفعلي مثل هذه البلوزة بمفردك؟

- نعم يا أمي.

- هذا ما أردته .

ضحكت بدرية، وهي تتذكر سخرية ابنتها الصغيرة "منيرة"، وهي تسترجع كلمات أمها، كان هذا الموقف منذ شهر، وكن جالسات في الحديقة الفسيحة التي تحيط بالسواقي

وسط "الفيوم" .قالت منيرة وهي تشير إلى فستان ابنتها الزاهي:

- هل تستطيعين يا دلال أن تصنعي مثله؟

أجابت دلال بثقة:

- طبعًا يا حلوة، شوفي ما تلبسه ابنتي.

- كم يتكلف يا أختي؟

- على حسب ثمن الخيط، ممكن ثلاثون جنيها أو أكثر.

- واحسبي زمن صنعه، وتعبه يكون كم يا دلال؟

- حوالي خمسين جنيها، هذا لطفلة صغيرة.

ضحكت منيرة وهي تقول:

- أنا أشتريته بثلاثين جنيها فقط، يا حلوة.

ضربت الأم صدرها وهي تقول:

- معقول يا منيرة!

- نعم يا أمي؛ إنه من مصنوعات الصين، شوفي ثمنه أرخص من ثمن الخيط نفسه.

استغربت دلال، وأمسكت الفستان وتأملته وهي تقول:

- صحيح يا بنت يا منيرة ؟!

- والله العظيم صحيح.

قالت الأم:

- عشت وشفت الجاهز أرخص من شغل اليد !

انتبهت دلال :

- ولكن خيوطه ضعيفة، وألوانه تبهت بسرعة، أما ما أصنعه فخيوطه قوية ويظل محتفظا بألوانه ومتانته ، وهذا بعد سنة أو اثنتين سيكون أجرب.

استهزأت منيرة:

- عادي يا أختي، أشتري لها غيره، وتكون البنت كبرت، والفستان قَدُم عليها، والجديد جديد يا حبيبتي.

صرخت دلال هازئة:

- يا حبيبتي، أنتِ كسلانة، لا تريدين أن تتعبي، الله يساعد زوجك ....

ضحكت الأم، ستظل البنتان متحابتين متعاركتين، ردت منيرة:

- أنتِ متأخرة يا أختي، الدنيا تتقدم، وأنتِ مثل أمك، أهم شيء ما تصنعينه باليد. ونسيت أن الخياطين أغلقوا محلاتهم، وعملوا في المصانع الجديدة .

لم تجد دلال إلا كوب الماء الفارغ لتضرب أختها به.

* * *

أسبوع مضى على إنهاء "نادي" الجيش، وعودته إلى وظيفته في مدرسة الصوفي الابتدائية. حمد ربه، فالمدرسة التي تركها منذ التحاقه بالجيش المصري - في العام 1965- هي نفسها، لم تتغير، نفس المبنى العتيق. بيت قديم من بيوت أثرياء الإقطاع، يتذكر جيدًا، كيف كان يتطلع إلى هذا البيت الواقع على حافة الأراضي الزراعية. كان صاحبه "محمد سالم" باشا، الثري الصالح ، قد كوّن ثروته من تجارة الخردة، واشتد ثراؤه بعد الحرب العالمية الثانية. يتذكر "نادي" جيدًا كيف كان العيال المشردون، يجمعون له حديد

الخردة من المخلفات، ويشتريها منهم، ويقوم بدوره بتوريدها لمصاهر القاهرة. بنى هذا البيت وجعل حوله حديقة مرتبة الأشجار، وعاش فيه مع زوجته، التي استوحشت ابتعاد البيت، فطلبت منه أن تعيش في شقة وسط البلد بين الناس والزحام، واستجاب لطلبها؛ رغبة في إرضائها، وتعويضها عن عقمه. عندما استشعر الحاج محمد سالم نية الثورة مصادرة أملاكه، باع بعضها، ووضعها في مدرسة خيرية، تتكفل بالولد منذ سن السادسة إلى أن يتم حفظ القرآن، في سن الثانية عشرة، ويحصل على الشهادة الابتدائية، وكفالته للولد : طعام، وملبس، وكتب. كان "نادي" أحدهم، الوحيد من إخوانه الذي دخل المدرسة القرآنية، يتذكر كيف كان التلاميذ يقفون طوابير للحصول على كيس الوجبة الغذائية، والحاج محمد يراقب من جلسته - تحت المظلة - المشهد، وشفتاه تتمتان بالتسبيح.

- الله يعطيك الصحة يا حاج محمد، ويطيل عمرك.

اعتمد الحاج محمد على ريع محطة البنزين والسولار التي أبقتها الحكومة له، مع مجموعة من الفدادين الزراعية، ينفق منها على المدرسة.

- الله يجزيك خيرًا عني يا حاج.

راح "نادي" يردد آيات القرآن، مترنما بها، بنفس طريقة الشيوخ في المدرسة القرآنية، في ترتيل القرآن ؛ صوت هادئ، وتجويد في التلاوة ، بطريقة "الحدر"، كانوا يؤكدون أنها أفضل طريقة لمراجعة السور.

في المدرسة، يتأمل المبنى الأصفر، والحديقة التي صارت ساحة للمدرسة، وقد أتى التلاميذ على زخارف البيت. تطلع إلى المدرسات الجديدات، خريجات معهد المعلمات ؛ شعر غزير، تنورات قصيرة ؛ ما فوق الركبة أو أسفلها بقليل، أذرع مكشوفة، ضحكهن مصطنع بعصبية، لكل كلمة يقولها معلم عزب. بعضهن في أثناء الدوام، يرتكن في ركن مع أحد المعلمين، ويغرقن في حديث باسم، نصفه كذب، أو نكات . يرقب ، ويكتفي بالانزواء .

* * *

الخامس من يونيو 1967م :

حين عاد نادي إلى البيت، وجد رمضان يلعب كعادته أمامه، نظر إليه بحدة، الولد لا يريد إكمال دراسته الإعدادية، عقله معلق باللعب. سبحان الله، رغم تعب بدرية من أجله ، ناداه:

ـ رمضان.

ـ نعم يا أبا عاصم.

ـ درست اليوم؟ أنت لديك دور ثان في الصيف.

أحنى الولد رأسه، فتحسس نادي شعره، وهو يقول:

ـ يا حبيبي، العلم نور ورزق.

ـ أنا أروح مع عمي الأرض.

ـ والمدرسة ؟

ـ أكره المدرسين...؛ يضربونني، والعيال يعيرونني برسوبي.

أحاط نادي الصبي بذراعه، وهو يقول:

ـ نطلع نتغذى، ويحلها ربنا.

تناهى لسمعه وهو على السلم، أصوات جلبة في الشارع، عاد ثانية، وجد الناس في المقاهي، متجمعين حول المذياع. تساءل، فجاءته إجابات مختلفة، عرف من الهمسات... ، فآثر العودة للبيت.

.....

كانت "بدرية" تداعب صغيرها عاصم، الذي بلغ الشهور الأربعة، فرحةً بعيونه الصافية التي تجوب أركان البيت، وتحفظ الوجوه، وبأساريره التي تزخر بالضحك للمداعبات.

ـ أهلا يا أبا عاصم.

ـ كيف حالكم؟

ـ بخير، تأخرت علينا اليوم.

أسرع للمذياع، فتحه، وهي تلاحقه بأسئلتها، وهو لا يرد:

- ألن تتغذى؟ اترك المذياع الآن.

- معقول، صرت تحب الأخبار؟

جاءه صوته أحمد سعيد من إذاعة صوت العرب، بيان ناري، ارتاح لسماعه، جاءه صوت بدرية:

- الأكل على الطبلية، هيا يا نادي.

قرر أن يأكل، فقد عاوده الإحساس بالجوع، جلس، وجاء أحمد الذي أنهى الثانوية العامة ويترقب نتيجتها، ورمضان، التفوا حول الطبلية، وانشغلت بدرية بصغيرها، وضع "نادي" اللقمة في الطبيخ، فتخضبت بـ "دمعة الطماطم" الحمراء، لم يستطع أن يخرجها، فقد نطق أحمد:

- نحن نعيش في كذبة كبيرة.

أجابه نادي باستسلام.

- الحمد لله، خرجت من الجيش قبل الحرب.

ثم عاد للقمته المخضبة بعصير الطماطم ، وهي تحمل قطعة بطاطس ، وقال:

ـ هيا يا أحمد، كُلْ.

صدقت بدرية على كلامه:

ـ نعم يا أحمد، كُلْ، أنتَ لم تفطر اليوم .

وضع أحمد ملعقة من السلاطة في فمه، ومضغ قطعة لحم، ثم وقف:

ـ الحمد لله.

نظر له "نادي" حزينا، توارى أحمد في غرفته، بينما استمروا يأكلون، رمضان بشهية عالية، ونادي يزدرد اللقمات، في سكون، ولا زالت ملامحه جامدة.

.....

الناس في المساجد، ومسجد قايتباي يشهد تجمعات الشباب، كان أحمد معهم، أطلق سوالفه، ونبتت شعيرات لحيته.

أقنع نادي نفسه، وحدّث بدرية التي لا تعرف ماذا تفعل مع هذا الزوج المتجمد الملامح، ولا الأخ القابع في المسجد مع الشباب.

قال لها:

- أنا في حالي، أربي عيالي وأشوف مصالحهم.

طأطأت بدرية رأسها، كلامه بارد، ممزق الأحرف .

* * *

جلس نادي مع أبيه، الذي صمم أن يسير في جنازة النحاس باشا في القاهرة، في العام 1963م، وسافر خصيصا لها.

قال الحاج علي مغتصبًا ضحكة:

- واحد من الزبائن الأفندية، حكى لي - البارحة - أن اليهود كانوا مع الأسرى المصريين عندهم، يفرقون بين العسكري والضابط من السروال، سروال الضابط يكون جاهزا ناعم القماش، أما العسكري الجندي فسرواله مصنوع من قماش "الولاية " الخشن.

ضحك مرتسم في الأفواه، بلا رائحة، آثر نادي أن يعود لينام مبكرًا.

.....

سأل نادي أحمد بعد شهر من ظهور نتيجة الثانوية العامة:

- خيرا يا أحمد، ماذا نويت؟

قال الشاب بأسى:

- ليس أمامي إلا المعاهد، ما حصّلت كلية ولا جامعة.

- طيب.

- أي معهد أدخله يحتاج مصاريف، وسكن في القاهرة، وعمي كما تعلم يقول اشتغل بالثانوية العامة، فالأرض عائدها بسيط.

غمغم نادي:

- عمكم أجّر الأرض لمزارعين، والمزارع لا يخرج، والإيجار ثابت والدنيا غلاء.

تساءل أحمد:

- ما رأيك يا أبا عاصم؟

- أنت أدرى بمصلحتك يا أحمد.

- أمـامي معهـد أمنـاء الشـرطة، يعطـي سـكنا، وإعانـة شهرية، ومدته سنتان ونخلص من الدراسة كلها.

تدخلت بدرية:

- وتتخرج منه عسكري؟

- لا، يا أختي، أتخرج أمين شرطة.

- ضابط تقصد؟

- لا، قريب من الضابط .

تدخل نادي باسما:

- أمـين الشـرطة يشـبه الصـول، أعلـى مـن الشـرطي، وتحت الضابط!

ضحكت بدرية:

- فهمت الآن، على بركة الله يا أخي.

.....

- مبارك عليك يا أستاذ نادي العلاوة.

- أي علاوة يا عم محمود؟

قال محمود الصراف وهو يقدّم الكشف لنادي ليوقّع عليه، ومن

ثم يعطيه المرتب:

- الحكومة أعطتنا علاوة غلاء معيشة.

- أخيرًا؟

- الأسعار ترتفع.

- البلد مضروبة، وخيرها للجيش.

- حتى الآن لم يتجاوز مرتبي خمسة عشر جنيهًا ، الحمد لله على كل حال.

- قبل العلاوة أم بعدها؟

تطلع نادي للكشف، كان قد وقع بآلية، ابتسم:

- الآن، مرتبي خمسة عشر جنيهًا وثلاثون قرشًا.

ـ شفت الحكومة حريصة عليكم، ألم تتوقع الزيادة؟!

ـ أنا لا أقرأ الجرائد، ولو قرأتها لا أصدقها.

.....

حـاملا بطيخـة، وكيسًـا ورقيًـا بـه برقـوق، دخـل نـادي، استقبله طفلاه. عاصم وعمر، عاصم منطلقًا لذراعيه، وعمر يحبو نحوه، تدحرجت البطيخة على الأرض بفعل لهو عاصم بها، جاءه صوت بدرية من المطبخ:

ـ حمدًا لله على سلامتك يا أبا عاصم.

ـ الله يسلمك.

ـ ما شاء الله، كل هذا.

ـ بسبب علاوة غلاء المعيشة التي منحتها الحكومة.

ـ أخيرًا، تحرّك الراتب.

ارتـدى جلبابـه القطنـي، وجلـس فـي الصـالة، بـان وزنـه الزائد في كرشه المتدلي، أجلس عمر على حجره.

- برّد وجهك يا أبا عاصم، أرسلت لك فوطة مبلولة مع عاصم.

قطرات الماء البارد تنثال على وجهه، ارتكن للحائط، أقبلت بدرية تمسح يديها من آثار الطهي:

- الغذاء جاهز؛ هل أضعه؟!

لم يرد، يفكّر، كررت سؤالها:

- عندك جبن مخزونة؟

- عندي ...

- وعندنا بطيخة، شقّي البطيخة، واتركيها تبرد في الصينية الألومنيوم، على إفريز الشباك البحري.

ضحكت الزوجة، تعرف ما يريد، ذهبتْ، وهي تقول:

- اصبر حتى أشق البطيخة.

- قطعي على الجبن طماطم، وضعي عليها شطة.

- ابحث عن رمضان.

تساءل نادي:

- وأين هو؟

- في الشارع يلعب.

- تعالي يا بدرية، أكلمك في موضوع مهم.

قدمت الزوجة وبيدها سكين عريض.

- شوفي يا أم عاصم، حرام أن نترك رمضان هكذا، لابد أن يعمل أي شغلة أو وظيفة.

- أي وظيفة؟ ليس معه إلا الابتدائية .

- ممكن تعيينه في أي مصلحة.

- وهل تقبله مصلحة يا نادي ؟

- أبحث له عن واسطة.

- ماذا يعمل؟

- فكرت أن يعمل حارسًا، وسيكون متعينًا، موظفًا، وله مرتب في النهاية.

- والله فكرة يا أبا عاصم.

نظر لها الرجل، وعلى شفتيه ابتسامة عريضة، قال:

- خفتُ أن ترفضي.

- أنا، لماذا؟

- لأنها وظيفة بسيطة.

- صحيح بسيطة، ولكنه لم يفلح في صنعة، وعمي الله يسامحه أجّر الأرض ولا نأخذ منها إلا التافه.

- سأسعى له، وربنا يسهّل.

.....

في غرفة المندرة، وعند المغربية، كانت السيارات والباصات تملأ الشارع، الذي بات مرصوفًا جيدًا، وعلى جانبيه الأشجار. جلست بدرية وزوجها يحتسيان الشاي.

جاء رمضان، وقد بدا الاتساخ على جلبابه، شاب في الثامنة عشرة من عمره، منكوش الشعر.

- رمضان.

- نعم يا أبا عاصم.

- وجدت لك شغلة.

- صحيح. أين؟

- حارس مدرسة.

- خفير، أشتغل خفيرًا؟! لماذا يا أستاذ نادي؟!

بدا الغضب على قسمات رمضان، فهتف به "نادي".

- اجلس يا رمضان، يا أخي، نتكلم ونحن جالسون.

- أنا صرت ثقيلا عليكم.

ردت بدرية بحنان.

- أبدًا يا أخي ، أبو عاصم يريد مصلحتك.

- أشتغل خفيرًا؟!

أجلسه نادي بكلتا يديه بجواره، وأعطاه كوب شاي، وهو يقول:

- كما تشاء يا حبيبي، إذا كنت لا تريد، انس الموضوع كله.

ارتاح رمضان، وراح يرتشف الشاي، وهو يغمغم:

- سيعيّرني الناس بأني خفير!!!

ردت بدرية بمزيد من الأريحية:

- لا تهتم، عندك إيجار أرضك، عش منه.

- أي أرض يا بدرية؟ المستأجر اليوم كأنه مالك!

ضحكت بدرية، وهتف به رمضان:

- أنت قلتها، كيف ستتزوج يا رمضان؟!

- أنا صغير الآن.

- وبعد سنتين أو ثلاثة ألن تتزوج؟ من أين تنفق يا حبيبي؟

- هاه!

اقتربت منه بدرية في جلستها وهي تربت عليه:

- يا أخي، حارس مدرسة أحسن من العمل بالأجرة في الغيطان، عند عمك أو عند الغريب!

- لم أفهم يا بدرية!

ابتسم نادي وهو يقول:

- أنا أشرح لك : تحب أن يكون لك راتب شهري حوالي ثمانية جنيهات؟!

- طبعًا.

- وسواء مرضت أو لا، تأخذه؟

- طبعًا.

هذه هي الوظيفة، راتب كل شهر، وممكن تشتغل أي شغلة ثانية، المهم أنت ضامن راتبًا دائمًا، كنت بعافيتك أو مريضًا ستحصل عليه.

فكّر رمضان قليلا، وتساءل:

- عيال عمي سيعيرونني، وكل أصحابي!

ردت بدرية بضحك:

- من في أصحابك؟ يا عبيط، أنت حكيت لي أن صاحبك أبو الخير تعيّن في البلدية، وواحد آخر تعيّن في الشرطة عسكريًا، يتحكم فيه الضباط.

- صحيح.

ثم أسهب نادي:

- وأي وظيفة ثانية تحتاج شهادة، وأنت لم تكمل ...

بدا الاقتناع على وجه رمضان، وارتاحت قسماته، فتساءل:

- وكيف سيتم التعيين؟

ابتسم نادي وهو يقول:

- أنا تحركت منذ فترة، وأختك أعطتني شهادة ميلادك، والشهادة الابتدائية، وكلّمت صاحبًا لي في الموضوع، وإن شاء الله يتم، وسيكون التعيين مؤقتًا حتى تنهي الخدمة العسكرية.

- أنا طبيعي سآخذ إعفاء؛ لأن نظري ضعيف.

- إن شاء الله ربنا يسهل أمورك يا رمضان.

هتف رمضان بحماس:

- جزاك الله يا أبا عاصم كل خير ، سيكون لي راتب كل شهر، وأرحم نفسي من الشغل باليومية في المزارع.

.....

في دكان أبيه، جاء شقيق نادي الأستاذ عطا، وقد بدا متأنقًا كعادته، تطلع إلى نادي بوجه مغاير وهو يقول:

- صحيح ما سمعته يا نادي؟

- ماذا سمعت يا عطا؟

- إن نسيبك رمضان سيعمل خفيرا لمدرسة، وأنت أستاذ ومدرس كبير.

- وماذا فيها؟

- فيها كثير، الناس تقول إن نسيبك خفير.

- أحسن ما يقولون إن نسيبي أُجَريّ باليومية أو عاطل أو ... حرامي.

تدخل الحاج علي الذي كان يعالج ذراعًا ملتوية برباط ضاغط:

- لو كان هذا تفكيرك يا نادي، يكون ربنا سبحانه آتاك الحكمة.

- الله يجزيك خيرًا يا أبي.

واصل الأب:

- { يؤتي الحكمة من يشاء } .

* * *

رمضان 1973:

"شهر الصوم، يلم الشمل، ويصفي النفوس، والطبلية عامرة بخيرات الله، والنفوس سمحة".

هكذا حدّث نادي نفسه، وهو عائد من صلاة العصر في مسجد الصوفي، بعدما غفت عيناه بعض الوقت فترة الظهيرة.

أول أكتوبر، مطلع العام الدراسي، التلاميذ هادئون، تعبوا من جمع القطن في الغيطان، واكتست وجوههم بسمرة محمرة من شمس صيف قائظ.

في ميدان حي الروبي، أفران الكنافة والقطائف منصوبة، تزدان بالأعلام والفوانيس الكهربائية، تلاشت

فتائل الكيروسين والزيت في فوانيس رمضان أمام هجمة أحجار البطاريات، و تمدّد أعمدة النور الخشبية في حواري الحي.

حركات غير عادية في الشوارع والمقاهي، آثر أن يغوص في انزوائه، تحرّك نحو البيت، تاركًا الناس يهللون في البقالات والمقاهي، تناهت لسمعه كلمات متداخلة، افتقد صدقها في أعماقه.

في المنزل، رائحة الخشاف في الصالة، ورائحة سمك يقلى ينفثها المطبخ. أصوات العيال المتصارعين على قطائف نيئة تصطخب على صوت المذياع.

- جئت يا أبا عاصم؟

صوت بدرية، التي أردفت:

- ألم تسمع الأخبار؟ أنا فرحانة!

- ماذا؟

سمعت من الجيران، وفتحية أم مرسي، أرسلت لي ولدًا من عيالها وأخبرني.

- ..... ؟

- الجيش يحارب.

.....

للوطن طعم جديد في الحلوق. في الفصل يسأله طالب:

- كيف كنا نضحك على أفلام فؤاد المهندس؟

أجابه الأستاذ وهو جذل:

- المأساة سبب للضحك والقهقهة.

- لم أفهم يا أستاذ؟!

- لأن هناك حزنا يطاردنا في يقظتنا وأحلامنا، فهربنا للضحك

.....

في آخر زيارة له، قال أحمد لأخته بدرية:

- نجحت ، الحمد لله ، في المعهد.

- مبارك عليك النجاح يا أحمد.

- طلبت تعييني في القاهرة.

- ألا تريد الشغل في الفيوم؟

- الشغل في القاهرة : علاوات وترقيات، وسأزوركم كل أسبوع

- طيب.

- سأذهب أنا الآن لأسلم على عمي وعياله.

.....

على طبلية العشاء، تحلق سبعة أفراد. نادي وبدرية وعاصم وعمر والمولودة الجديدة "دلال" بصوتها حاد النبرة، قال أحمد:

- شفت يا أبا عاصم آخر الأخبار.

- خيرًا يا أبا حميد.

- شفت صاحبك، ابن عمي "إبراهيم" سيسافر إلى أوروبا.

شهقت بدرية:

- معقول! ويترك أباه وأمه وإخوته، وهو أكبرهم.

تساءل نادي بضيق:

- ولكنه لم يخبرني بعزمه الفعلي، كان يفكر فقط.

رمضان بسذاجة:

- وسيشتغل في أوروبا فلاحًا؟!

ضحك أحمد وهو يقول:

- إبراهيم أنهى كلية الزراعة.

رمضان مواصلا:

- أبوه عنده الأرض، ولم يؤجرها، ممكن أن يشتغل فيها، بدلا من تأجير الأنفار، والله يسامحه على تأجير أرضنا.

أكدت بدرية:

- صحيح كلامك يا رمضان.

رد أحمد بطيبة:

- المسامح كريم يا أم عاصم.

استفسر نادي:

- وإلى أين سيسافر إن شاء الله؟ فاجأني الخبر فعلا.

- إلى فرنسا.

- المصريون يهربون للخليج أو أوروبا.

- عقبا لك يا أبا عاصم.

- أنا لا أترك أهلي وأولادي . وأبي وأمي لا يستغنيان عني.

وأردف بحزن:

- منذ وفاة أخي الأكبر "هاشم"، منذ سنتين، وأبي وأمي مكسوران، الحزن قتلهما ، هما يراعيان أبناء هاشم الله يرحمه .

* * *

ليلا، وحين غفا الأولاد الأربعة مستلقين في أنحاء الصالة، على السجادة والمقاعد، قالت بدرية بحنو:

- نفسي في بيت يجمعنا أنا والعيال.

- ربنا يسهل يا أم عاصم، رزق ربنا للعبد لا يعرف بلدًا ولا سفرًا.

تساءلت الزوجة بتردد:

- لماذا لم تعد تسهر مع صاحبك الأستاذ عبد التواب؟ وزوجته لم تعد تزورني.

ساخرًا رد:

- صار مشغولا، الدروس الخصوصية أكلته، وزوجته تعطي هي الأخرى دروسًا خصوصية، هو يدرس الأولاد، وهي للبنات. الدنيا ملهاة.

* * *

تتابعت الأخبار.

اتفاقية فض الاشتباك الأول والثاني، أكتوبر آخر الحروب.

ثم حضور كيسنجر، وزيارة نيكسون.

عاد نادي لصمته الدائم.

.....

عقب صلاة العشاء، اتخذ مجلسه على المقعد الخشبي أمام دكان أبيه، والأب بجواره، يحتسيان الشاي الذي أعده نادي، على وابور السبرتو في ركن بالمحل، تطلع الحاج علي إلى ابنه وهو يقول:

- أراك متغيرًا يا بني!

- أبدًا، لا شيء يا أبي، أنا والعيال وبدرية بخير.

ضحك الوالد، وهو يقول:

- ولكنك مشغول البال.

ابتسم نادي بحياء:

- وكيف عرفت يا أبي؟!

- أنت هادئ وصموت، ولكني أبوك، أعرفك من عيونك.

تعجب نادي:

- أول مرة أسمعها منك يا أبي.

- المهم، ماذا يشغلك؟!

زفر أبو عاصم، وهو يقول:

- أبدًا، الرزق! الحياة غلت، والعيال كثرت وكبرت، وأنا لا أعطي دروسًا خصوصية، فقط فصول تقوية في المساجد.

- .. فضل من الله .

- ولكن الحياة اشتدت عليّ.

ابتسم الأب، وناول ابنه كوب الشاي الفارغ، وهو يقول:

- دائمًا أقول الوظيفة ضيقة الرزق، والسوق واسع.

عيون الابن مشرئبة، فأوضح الوالد:

- ابحث عن عمل آخر، واشغل وقتك فيه.

استفسر نادي:

- أنا لا أعرف إلا التدريس.

- افتح دكانًا، وتسلَّ فيه بعد الظهر.

ضحك أبو عاصم وهو يرفع يديه:

- وماذا أعمل في الدكان؟!

- تجارة، بقالة، غلال ...

- والدكان؟ الإيجارات نار.

قال الحاج علي متفكرا :

- الحاج الغندقلي، محمد الغندقلي، لديه عمارة في أول سوق الثلاثاء، وأخبرني آخر مرة كنت أعالجه فيها، أن محلا فيها فارغ، ممكن أن تأخذه.

- والمقدم للإيجار؟

- سهلة، أنا أكلمه، وممكن ينتظر عليك.

.....

في طريق عودته كان هم نادي منصبا على مقدم المحل ، تفكّر، شعر بخزي نفسه؛ مصدر المال الوحيد له. ذهب بدرية، والبديل الاقتراض. استجمع شجاعته، يعلم أنها لن تتأخر عليه، سيفاتحها في الموضوع .

.....

أجابتـه بدريـة مـن غرفـة النـوم، حيـث أحضـرت علبـة صغيرة احتوت الأساور المتداخلة مع السلاسل الذهبية:

- الذهب بلا فائدة، وأنا لا ألبسه.

رد بضيق:

- إن شاء الله أعوضه لك .

- المهم المصلحة.

- بـدلا مـن السـفر والغربـة ؛ وتفـارقني أنـا والعيـال ... فراقك صعب جدا يا نادي.

أطـرق الـزوج متـأملا بـلاط الأرض الـذي مـال للسـواد، بفعـل تـراكم السـنوات، البيـت قـدُمَ، والشـقة ضـاقت ، تجمـع المستقبل مع الحاضر في عينيه، شعر بضيق الحياة.

انتبه علـى صـوت زوجتـه، وهـي تنـاولـه ذهبهـا، تأمـل مـا في يدها، أعاد قرطها إليها وهو يقول:

- هذا يكفي، وزيادة.

- أنا لا ...

قام وهو يقول:

- سأنشغل عنك في الأيام القادمة، أجهز المحل، واشتري البضاعة.

أرادت أن تسري عنه، وأن تتعرف التفاصيل فقالت:

- سيكون بقالة طبعًا؟

ضحك كثيرًا، وهو يطالع وجهها المحافظ على نضارته :

- أخبرتك أنه سيكون لبيع أدوات المدارس والتلامذة، وليس بقالة.

- أنا قلت لو كان بقالة، نأخذ احتياجاتنا مجانًا ،هههههه.

أغلق الباب خلفه، وعادت هي لشقتها متشققة الجدران.

.....

قالت بدرية لزوجها الذي غفل قليلا ثم قام لصلاة العصر:

- ستأتي متأخرًا كالعادة يا نادي؟

أجاب مدركًا اعتراضها على سهره :

- أنت تعرفين أن المحل جديد، ويحتاج أن أجلس فيه حتى أضمن الزبائن معي.

- براحتك يا أبا عاصم.

- دخل المحل أفضل من الدروس الخصوصية.

- ربنا يزيدك من خيره .

* * *

حين حضر أحمد من القاهرة، جاء محملا بأكياس ورقية فيها: الزيت والسكر والدقيق والشاي. ساعده أخوه رمضان في حمل الأكياس إلى الدور الثاني. تعجبت أخته:

- ما شاء الله، كلّفت نفسك يا أحمد.

- لا ، بسيطة.

- سأطلب من أبي عاصم أن يحاسبك على هذا.

- عيب يا بدرية، أنا دفعت مبلغًا بسيطًا.

- معقول؟!

- والله العظيم.

حين حضر نادي، وأخبرته بدرية، هتف:

- أحمد، إما أن أحاسبك أو أزعل منك !

- لماذا يا زوج أختي؟

- تكاليف كثيرة.

- أبدًا، والله، كل هذا بجنيهين ونصف.

ضربت بدرية صدرها، وشهقت، ورفع نادي حاجبيه، وتساءل:

- هذا بحوالي خمسة عشر جنيهًا.

- والله هذه الحقيقة.

- ..... ؟!

- جمعية الشرطة، طرحت هذا للضباط والصولات والأمناء.

- رخيص جدًا.

ابتسم أحمد بطيب وهو يقول:

- نحن الشرطة.

- ولكنني أعرف ناسا يعملون في الشرطة، ولا يجدون هذا!

- صحيح، ألم أخبرك؟

- لا .

- لقد نقلوني من شهر إلى إدارة أمن الدولة .

- آاااااه.

ضحكت بدرية وهي تقول:

- مبارك عليك، ترقية طبعًا.

- أبدًا، نقل لكفاءتي أو لصمتي .

جلس نادي على الحصيرة، ونادى ابنه:

- عاصم، انزل اشتر أي مشروب بارد لخالك يا بني.

أقبل الولد يقول:

- نشتري بيبسي يا بابا.

- اشتر يا حبيبي، الجديد الآن، البيبسي والكوكاكولا.

التفت لأحمد وهو يقول:

ـ أمن الدولة كان اسمها زمان البوليس السياسي.

أطرق أحمد، وقال: الموضوع ليس بيدي يا أبا عاصم.

ـ أنت موظف، تسمع وتنفذ، ولكن ...

ـ أعلم، وسأحاول .

.....

حين دخل نادي من باب البيت، سمع صوت عم بدرية:

ـ أستاذ نادي، أبا عاصم.

توقف، كان العم جالسًا في ردهة شقته:

ـ سلام عليكم يا عمي.

ـ وعليكم السلام يا بني، كيف حالك وحال الأولاد؟

ـ نحمد الله.

ـ اجلس يا أستاذ نادي، ودي أن أحكي معك.

جلس نادي على كرسي خشبي، أنّ الكرسي القديم لثقل جسمه:

ـ أستاذ نادي، عندي عرض عليك، أبو بدرية ترك بيتًا في حارة العطار، ما رأيك أن تأخذوا هذا البيت القديم وابنوه، مقابل فدان أرض، وسينفع عيالكم.

ـ القرار بيد مالكة البيت، بدرية؛ أنا ضيف عمومًا هنا.

ـ أنت قريبنا وأخونا يا أستاذ نادي، قبل أن تكون نسيبنا.

* * *

ـ ليس لي رأي يا أبا عاصم، الكلمة كلمتك، والشورى منك.

قالتها بدرية ثم أردفت بحدة:

ـ هو يريد أن يُخلي البيت له ولأولاده.

صمت نادي، وتطلع إلى البحر، على الجانب الآخر. بيوت درب الطباخين القديمة، صارت عمارات، وأهلها يعيشون في شقق، تناول قُلّة المياه المنداة بالماء الرطب، وارتشف منها، هل الماء ساخن أم جوفه ملتهب؟

ـ خيرًا، يا أباعاصم، ماذا قررت؟

تطلع لها، نظرات الاستسلام التام له في عينيها. جاءته أصوات الأولاد، أمام المنزل، عالية، مختلطة بهدير السيارات.

قال بحزم والسحب تتخاتل في عينيه:

- لدينا مدخرات، ونعمل بعض الجمعيات، ويمشي الحال.

ارتكنت على صدره ؛ إنه يحميها من مجهول تستشعره.

* * *

طرقات على باب الشقة، فتحت بدرية، دخل العم :

- سلام عليكم، ثلاثة من المستأجرين من أرضك يا بدرية قبلوا

أن يأخذوا إيجار ثلاث سنين ويطلعوا، والباقي اثنان سنحاول معهما.

وقف نادي ساهمًا، زغردت بدرية:

- أخيرًا عادت لنا أرض أبي.

تساءل نادي:

- لم تخبرنا عن هذا يا عمي؟!

- كنت أحاول، ووفقنا ربنا.

شعرت بحنو العم في وجهه المتغضن.

* * *

- سننتقل للبيت الجديد الأسبوع القادم، إن شاء الله.

ضحكت بدرية، وهي تقول:

- البيت لا يزال على المحارة، يحتاج الدهان.

- أنفقت ما عندي، نعيش فيه وربنا يسهلها علينا.

- يمكن أن نكمله من خير أرضنا.

* * *

ما إن أغلقوا باب البيت عليهم، بعد شقاء نهار كامل في نقل العفش، حتى قال نادي:

- الحمد لله، بابنا مقفول علينا.

تعلق أولاده به فرحين بغرفتهم الجديدة، فيما راح يتجول في غرف البيت الثلاث، وصالته الفسيحة، وقد توزع الأثاث في الأركان.

هتفت بدرية:

- سأربي الفراخ والبط والوز براحتي؛ السطح كبير.

جلس نادي على حصيرة توسطت الصالة، وغمغم:

- اقتربت أن أنهي رسالتي في الدنيا : البيت، والدكان، ومعاش الوظيفة.

التقطت أذناها غمغمته، تعلقت في أعماقها.

* * *

استيقظوا على صرخات نسوة الحي، ارتدت بدرية عباءتها السوداء، وهي ترافق زوجها الذي لبس جلبابه البلدي على عجل. وصلت بيت عمها، صعد نادي وكشف الغطاء عنه، أجهش بالبكاء، وجه العم ساكن، وعيناه نصف إغماضة، أسدل رموشه، وضم ركبتيه، وربط حنكه مع

رأسه ، وتلا آيات القرآن، فيما انشغل أولاد العم بإعداد الجنازة.

تزاحم أبناء الحي والأقارب لتشييع الجنازة، تأخر نادي خلفها، صورة وجه العم البارد أمام عينيه، وحين فتحوا مقبرة العائلة، كان التربي قد أبعد الشاهد الحجري عن قبري والدي بدرية.

ليلا، وهما في بيتهما، وقد خلد الأولاد إلى النوم، لا تزال دموعٌ في مآقي نادي وصورة جسد العم الملفوف بالقماش الأبيض وهو ينسدل إلى حفرة الأرض لا تغادر ذاكرته، تمتمت بدرية:

- أين دفنوه؟

انتبه لسؤالها، ولملامحها الجامدة، أدرك قصدها:

- بعيدًا عن قبري والديك.

- كنت قد أوصيت التربي ألا يحفر جانب أبي وأمي لأحد.

- المقبرة من زمان لم تفتح، وحالها كما هو.

ترددت ثم قالت:

ـ أنا أزورها كل أسبوع، والتربي يعرفني، وقد طلبت منه هذا.

الفصل الثالث

بين القيظ والثرى

الثرى يتطاير من الأقدام المتضادة في حركاتها، بين إياب وذهاب، ما بين أحذية لامعة ونعال ممزقة، وأقدام حافية، تبتسم بدرية، عندما حملت إليها نسمات الظهيرة الحارة كلمات أهل الدنيا المتناثرة، كم أشقاك يا نادي لهاثهم! وضاعت نصائحك لإبراهيم بن عمي، الذي طار بالدنيا، وطارت به.

* * *

كان العم جالسًا على المصطبة أمام بيته المطل على ترعة "بحر يوسف"، حين لمح ابنه إبراهيم.

- إبراهيم، عسى الخير معك.

اتخذ إبراهيم جلسته جانب والده، وتجرّع من القلة الباردة، ثم قال بقرف:

- طابور طويل أمام مديرية القوى العاملة.

- المهم يقبلون الطلب.

- صبرت حتى قبلوه، وحتى ترضى أنت.

تفرس الأب في ملامح ابنه:

- تريد أن تسافر، وتغسل الصحون في بلاد "برّه".

- أريد أن أرى الدنيا والناس.

ضحك الأب مستهزئًا:

- دفعت دم قلبي لتعليمك في كلية الزراعة، وبعدها تشتغل خدامًا.

- يا أبي، أنا قدمت الطلب، وقدامي سنة أو سنتان حتى يرسلوا خطاب التعيين.

ارتشف الأب ما تبقى في كوب الشاي البارد، وهو ينصت لتساؤل ابنه.

- أسافر يا أبي. ما رأيك؟

* * *

حين جاءت حقيبة كبيرة تحمل كلمات بالحروف الأفرنجية، تكالب أخوا إبراهيم الاثنين وأخواته البنات الثلاثة عليها، جاءهم صوت الأم.

- بعد سنة ونصف غربة في فرنسا، مكافأتنا شنطة "هلاهيل"!

الأب يتأمل قطعة القماش الصوفية ذات اللون القاتم؛ التي انتزعها من بين البنطلونات والفانلات والجواكت الشبابية.

كررت الأم مقولتها بنبرة خشنة، فاضطر الأب للرد عليها، وهي التي لم تبرح جلستها على الشلتة المحشوة قطنًا :

- لا تنسي أم إبراهيم الفرنكات التي يبعثها كل شهر.

إنها إجابته المعتادة، غيّر رأيه في السفر، وصار يمدح إبراهيم كلما جاءته حوالة، تحفزت الأم، وزحفت إلى الحقيبة التي تبعثرت بين الأيدي، ناولتها ابنتُها الصغيرة قطعة من السَّتان البنفسجي، لمعت خيوطها أسفل المصباح الأصفر، فبدت مشربة بصفرة، لوت الأم رأسها، وهي تبسطها على فخذيها المكتنزتين، وتمتمت:

- فقط! قطعة ستان، لا تنفع جلابية ولا طرحة.

الابنة الكبرى "نوال" تتأمل المشهد، ثم تضحك هاتفة:

- تفصّلينها فستان سواريه يا أمي.

- فستان " إيه .. " ؟

تدخل الابن الأصغر "فتحي" وكان قد لبس فانيلة سوداء اللون، وبنطالا أزرق.

- ربنا يخليك يا إبراهيم، يا ليت تأخذني معك هناك.

الأم بانفعال:

- تسافر هناك؟

- نعم يا أمي، الشغل كثير هناك، أحسن من السفر لبلاد الخليج

- رزقك في سفرك.

هزأ الأب:

- المال الذي أرسله إبراهيم في سنة ونصف؛ حجم ما اشتغلت به طول عمري، آه يا دنيا.

تدخل الأخ الأكبر "سمير" متوجها لفريد.

- طبعا، والبنات هناك أحلى.

- كل الشباب يسافرون لأوروبا، ويا ليت إبراهيم يرسل لي دعوة ...!

- إبراهيم ليست معه الجنسية حتى الآن.

* * *

أعطى "فتحي" ساعي البريد إكرامية خمسين قرشًا، وتسلم الخطاب، وأسرع بفضّه وهو يرتقي السلالم الحجرية، ناقلا كفه على "الدرابزين" الخشبي المثبّت بأعمدة حديدية، ثم دفع باب الشقة العتيق صارخًا: - إبراهيم قادم بعد أسبوعين.

تناقلت أيدي البنات الخطاب، فيما احتفظ الأب بالحوالة المرفقة، قال فتحي:

- يريد أن نحجز له شاليها أو فندقًا على بحيرة قارون.

ضربت الأم صدرها:

- بعد أربع سنين غربة، يتكبر على بيتنا ...!

* * *

في جناح بفندق "الأوبرج" العتيق، على ضفاف بحيرة قارون، التفت الأخوات الثلاث حول زوجة إبراهيم "سوكا" بشعرها الأشقر، وعينيها الزرقاوين. هزأت الأعين من جسدها الممتلئ، بتهدل بطنها، وتدلي صدرها من فانيلتها الضيقة.

- ألم تجد إلا تلك العجوز لتتزوجها؟

- من أجل الجنسية يا أمي.

تطلع "فتحي" إلى تنورتها المكشوفة، وهمس لشقيقته "نوال":

- يظهر أن إبراهيم يحب النسوان الكبيرات.

قالت بقرف وهي تلوي رأسها:

- وماذا يحب فيهن؟

- مشكلتكِ أنك بنت، نحن نعرف أن المرأة الكبيرة لها طعم ثان.

ـ هذا كلام "الصايع الفاسد" مثلك.

* * *

تفاجأت الأسرة بإبراهيم وسوكا وهما يطرقان باب الشقة، وحين استقرت سوكا على الكنبة في الصالة، شربت من "القلة" متلذذة، وتولى إبراهيم ترجمة كلماتها " مياه النيل في القلة لذيذة والنعناع يفوح منها" ، فتحت حقيبتها، وسرعان ما كانت أيدي البنات مزدانة بأساور ذهبية، فيما استأثرت الأم بعقد لفّته سوكا حول عنقها. تفاجأ إبراهيم، ثم استدرك مُتفاخرًا:

ـ سوكا تحبكم كلكم، وتقول إنها تعلم أن المرأة الشرقية تعشق الذهب.

قال الأب الذي ناله ساعة جلدية الإطار، فخمة الصنع:

ـ وكيف عرفت طباع المرأة الشرقية يا إبراهيم؟

ـ كانت متزوجة مغربيًا قبلي.

لم يملك سمير نفسه:

ـ هي متخصصة في منح الجنسيات.

انقلبت الأم، وبدت مرتاحة القسمات، واختفت الشفتان الممطوطتان قرفًا.

ـ والله زوجتك طيبة يا إبراهيم، ربنا يحبك وأرسلها لك.

* * *

عانقت "بدرية" سوكا ؛ التي تعلمت بعض الكلمات العربية بنطق فكاهي، وفي غرفة الصالون، جلس نادي مع إبراهيم، وكان أحمد حاضرًا. نفث إبراهيم دخان سيجارة من صنع مصري، فابتسم أحمد قائلا:

ـ أين السجائر الأجنبية؟

ـ تعبت منها يا أحمد، النيكوتين في السجائر المصرية يشبع الصدر.

تدخل "نادي" متعجبًا:

ـ لم تكن تدخن يا إبراهيم من قبل!

الخجل يكسو وجه إبراهيم، وقد تهدل شعره على كتفه، وتناثر على جبهته، وغمغم:

- كل شيء تغير في الدنيا يا أستاذ نادي.

- أقصد ..

- بدون أن توضح ..، نعم أنا تغيرت ...، وللأسوأ.

خرجت الكلمات لطيفة من نادي:

- إبراهيم أنت مجتهد طول عمرك، وأنت تلميذي.

ابتسم إبراهيم ملتقطًا الإشارة:

- لا أنسى أنك درّستني في بيتك وأنا في الابتدائية، ولم تأخذ أجرًا أبدًا.

- أنت نسيبي ..، وأنا لا أبيع العلم.

- كل شيء يباع الآن يا أستاذ نادي، حتى الجسد.

* * *

عادت "بدرية" من بيت عمها، كان نادي قد سبقها للمنزل بعدما أغلق دكانه، السكون يخيم على البيت، فقد لاذ

الأولاد بالنوم في ليلة شتائية. تساءل نادي، وهو يخلع سترته:

- وجهكِ يحمل جديدًا.

- صرت تحفظني يا نادي، كنت في بيت عمي.

- أعرف، ما الجديد عندهم؟!

فكّت بدرية طرحتها متوجهة إلى غرفة النوم، وهي تقول:

- زوجة عمي وأولاده لا يعجبهم حال إبراهيم، ويضغطون عليه.

- بعد كل هذا الخير الغارقون فيه!

تواصل بأسى:

- أنا لا أحب الأجانب منذ أيام الإنجليز في مصر، ولكن قلبي انفتح لسوكا، أحس أنها طيبة.

- صحيح يا بدرية.

- تخيل، يضغطون عليه ليطلقها، ويتزوج بنتًا مصرية.

بان عدم الفهم على نادي، فجلس على حافة الفراش:

- يطلقها بعد كل هدايا الذهب، والمال، والجنسية التي أخذها منها.

- آه، والغريبة أن سوكا قالت له، تزوج مصرية لتنجب الولد منها، وأحضرها لفرنسا...

- وتظل هي على ذمته؟

- نعم، رضيت بذلك، وتقول أنا "أخبك يا إبراهيم".

وقف نادي، وتبع زوجته في طريقها للمطبخ:

- وما رأي إبراهيم في هذا كله؟!

- مسكين، لا رأي له، يسكت، ويهز رأسه.

ابتسم نادي ساخرًا:

- إبراهيم مثل كل الشباب الآن، ترك نفسه للدنيا تحركه.

- كيف.....؟!

* * *

ظلال السنطة بارد، وهواؤها عليل. استسلمت العجوز بدرية في جلستها أسفل السنطة، مبتعدة بعض الشيء عن قبر زوجها، هاربة من لفح شمس الظهيرة، التي تذكرها في أعماقها بأيام الصيف القائظ، قبل أن يشتري نادي الثلاجة، كانت ترسل عاصم ليشتري الثلج من ميدان "المبيضة" ويعود وهو يمص قطعة ثلج، وهي تصرخ فيه أن يكف عن هذه الفعلة.

ارتكنت العجوز بدرية قليلا إلى شجرة السنط التي انتصبت وسط القبور، تعجبت من خضرة الشجرة، وكل ما حولها جاف يابس، حتى "التُرَبي" يبخل عليها بالمياه التي يسكبها بغزارة على القبور عند الدفن، ليحيل ترابها طينا. تتساءل:

- تُرى، من غرس هذه السنطة هنا؟!

ظل استفهامها معلقًا، وهي تتذكر الأستاذ عبد التواب صديق نادي الحميم، وسنطته المغروسة أمام بيته الذي بناه في حي البارودية.

* * *

كانت الشمس تسحب آخر خيوطها، حين زار "نادي" زميله عبد التواب في بيته، طرق الجرس فخرج ابنه من الطابق الثاني، موضحا أن أباه في البيت المجاور، تطلع نادي إلى حيث أشار الولد؛ ثمة بيت طيني أشبه بحظيرة البهائم، وحين أعاد نظره لاحظ ارتفاع البيت إلى أربعة طوابق، بعدما كان طابقين، تمنى في أعماقه الخير لعبد التواب.

كان الباب مفتوحًا حين دلف نادي؛ ليجد عبد التواب في غرفة داخلية، وقد علا صوته بالشرح لتلاميذ مرحلة القبول (الشهادة الابتدائية). ابتسم نادي بحب، فقد وقف أمام صديقه القديم من أيام مدرسة المعلمين، الذي جاء من مركز "أبشواي" في ريف الفيوم؛ ليتزوج من المدينة، ويبني بيتًا فيها، هو حصيلة ميراثه من أرض أبيه كان هذا شرط زوجته "زيناهم" كي تتزوجه. لم ينتبه "عبد التواب" إلى نادي، في حين تصلبت أعين التلاميذ والتلميذات على هيئة الواقف في

مدخل الباب الخشبي. صوت "عبد التواب" ذو النبرة الحادة يهز المقاعد الخشبية التي تلاصق التلاميذ عليها، يصرخ:

ـ انتبه لي يا حيوان، عينيك علي أنا.

ـ أستاذ، فيه ضيف واقف على الباب.

ـ ضيف! من .....؟

عدّل عبد التواب وضع نظارته السميكة، ليتأمل "ناديا"، ثم هتف بلهجته الريفية.

ـ أهلا، أهلا، أستاذ نادي.

أحضان بحب بينهما، ثم جلس نادي على مقعد مجاور للسبورة، فيما أمر عبد التواب التلاميذ أن ينقلوا المسائل الحسابية التي خطّها بالطباشير على السبورة، همس نادي:

ـ آسف لو كنت جئتك في وقت غير مناسب، لا أعلم ظروفك يا عبد التواب.

ضحك الأخير عاليًا، غير منتبه لآذان الأولاد والبنات التي تنصت للحوار.

- يا رجل، أنا كل يوم في القرف هذا.

- أوحشتني كثيرًا يا عبد التواب، منذ سنة ونصف لم أرك.

الدنيا صعبة يا أخي، أين أيام زمان عندما كنا في مدرسة واحدة طلابًا، وتعيّنا في مدرسة الصوفي الابتدائية مدرسَين؟!

- والله أيام خير ومتعة. المهم أنا كنت أريدك في موضوع.

- يا عمي، انتظر، نشرب الشاي ونتكلم.

- لكن الأولاد ..

ضحك عبد التواب واقفًا، وأشار إلى ولد كبير الجسم :

- تابع العيال في النقل من السبورة، لو خلّصوا، يروحون لبيوتهم، ابتسامات في عيونهم لهذه العودة المبكرة، في حين لفّ عبد التواب ذراعه حول كتف نادي، وقاده إلى الطابق الثالث في منزله، حيث فتحت الزوجة غرفة الصالون مرحبة بحرارة :

ـ أهلا وسهلا يا أستاذ نادي، ما أخبار أم عاصم؟ لماذا لا تزورونا ؟

ـ بخير يا أم ياسر، هي مشتاقة لك.

ـ أنا زعلانة منها. لها شهور لم تأت.

وهما يرتشفان الشاي، تحمس نادي قائلا:

ـ جئتك في طلب بسيط.

آمرني يا أبا عاصم.

ـ أنت تعلم أنني لا أعطي دروسًا خصوصية، وقد عزمت أن أفتح دكانًا لبيع الأدوات المدرسية.

ابتسم عبد التواب، وهو يأكل موزة :

ـ والله مشروع رائع.

بحياء قال نادي، متحاشيا النظر لصديقه:

ـ ما رأيك لو تشاركني فيه؟

فهم عبد التواب القصد، فهتف:

ـ أنا ...! لا أفهم شيئًا في التجارة.

- ولكن ..

ـ حبيبي، الدكان حلال عليك، أنت صاحب عيال، وزوجتك لا تعمل، أما أنا زوجتي مُدرّسة، (يواصل بحب) وعندي مبلغ من المال، خذه، وسدده على راحتك.

ابتسم نادي براحة وهو يتمتم:

- أشكرك، أشكرك، والله أنا ..

وقف عبد التواب، ونادى على زوجته:

- زيناهم، زيناهم، هاتي شنطة الأوراق المهمة من الدولاب.

* * *

ضحكت بدرية وهي تفتح باب البيت لزيناهم، التي احتضنتها

وهي تقول:

- جئت أزورك، وأنا زعلانة من غيابكِ.

- لماذا ...؟!

- أكثر من شهرين لم أرك.

- مشاكل العيال، وأبو عاصم مشغول بين المدرسة والدكان.

جلست في غرفة الصالون، وأحضرت بدرية برتقالا سكريّا، وتولت زيناهم التقشير والمص والكلمات متدفقة من فمها:

- الحمد لله، عبد التواب على قدر ما يكسب من فلوس من الدروس، على قدر ما لا نوفر شيئًا، وكل يوم جمعة، أخوته وأهله من البلد يعسكرون في بيتنا.

- ربنا يبارك ..

تواصل دون انقطاع، ولا انتباه لتعليقات بدرية.

- كأن الفلوس تلسع يديه، واحد صاحبه في المدرسة، عرض عليه السفر لبورسعيد، وقال له تعال نشتري بضاعة، ونبيعها لزملائنا في المدرسة.

- فكرة حلوة.

- وهل زوجي له في التجارة؟ سافر معه، وعاد محملا بشنطتين، واحدة لنا، والثانية لأهله في البلد، وطارت فيها مئة جنيه.

تضحك، وتنثال قطرات من البرتقال على فستانها، تواصل:

- الحمد لله، بنى البيت، بفلوس ميراثه، كنت خائفة أن تطير هي الأخرى.

- زوجك طيب، ويستأهل كل خير.

- المهم، ما رأيك في الفستان هذا؟ أنا نويت أن لا أفصّل، وأشتري الجاهز.

وقفت زيناهم، واستعرضت فستانها وقد بدا أشبه بالعباءة، في حين ابتسمت بدرية، وهي تتأمل النقوش التي ازدحمت عليه. ورددت في خاطرها المثل. "جمّعَ ووفّق"، فزيناهم تشبه زوجها في الكلام الكثير، وحب المظاهر.

* * *

حين ذهبت بدرية إلى زيناهم في زيارتها المعتادة، كان عبد التواب منشغلا مع طلابه، فيما كانت زيناهم قد أنهت مذاكرة أولادها. اتخذت بدرية جلستها في الصالة، فيما أحضرت زيناهم بعض الكيك والشاي، وانفتح لسانها:

- أخت زوجي في العراق منذ ثلاث سنين، وأرسلت برقية أنها ستأتي بعد يومين، أهله فرحوا، وجاءوا له، وباتوا عندنا ليلة، وفي الصباح ركبنا عربتين مع العيال، ورحنا المطار، أول مرة نشوف المطار، وانتظرناها طول اليوم، في النهاية لم تأت الطائرة. قالوا تأجلت.

- لعل المانع خير.

- خير أو شر، عدنا، وزوجي الهُمَام هو الذي دفع تكاليف العربتين والأكل.

- كله كرم.

- كل إخوته عندهم الخير والأرض، لماذا يحملونها لعبد التواب؟ المهم، ثاني يوم، لقينا عربة تقف عند بيتنا، وابني ياسر يجري ويصرخ. عمتي "كريمة" جاءت. المهم، بدلا أن

تذهب للبلد، عند أهلها وأهل زوجها، عاشت عندنا هنا، وقالت أنا لا أحب الريف. وطبعًا، تحملنا مصاريف الإقامة وزيارات الأهل لها وخلافه ..، والله نحن غير قادرين أن نوفر أي مبلغ لمستقبل الأولاد.

تردف وهي تنظر لبدرية:

ـ الحل الوحيد أننا نسافر إعارة للخليج؛ لعل ربنا يسهلها.

* * *

تطلعت "بدرية" إلى السنطة التي انتصبت وسط المقابر، كان الثرى يعفر أوراقها الزاهية، وبدا لون جذعها متربًا، كأن الريح تخصها بالغبرة وحدها.

ـ ألا يوجد أحد يقطع أغصانها التي لامست الأرض، ومدّت ظلالا حولها؟ أتظلل على الموتى؟!

تتذكر حين سافر عبد التواب الإعارة، ماتت السنطة أمام بيته، وظلت جامدة في انتصابها، وحين عاد في أول سنة، كان همه بناء البيت القديم المجاور لبيته.

* * *

في ثالث أجازة سنوية من الإعارة، كان اللقاء المعتاد بين الأسرتين في منزل عبد التواب، حيث امتلأت الصالة بالحقائب والكراتين، اصطحبت زيناهم بدرية إلى غرفة النوم، وقد ملأت رسغها أساور ذهبية سميكة الحجم، وبقي نادي وعبد التواب في غرفة الصالون، أما الأولاد فقد نزلوا للشارع يلعبون. انتبهت بدرية إلى تغير زيناهم، تميل للجد والصمت، وحزن في عينيها.

- زيناهم، ماذا بك...؟!

- أبدًا يا بدرية، عبد التواب انقلب، ونحن في الإعارة، لم يعد إنسانًا ، صار وحشًا.

- اهدئي، اذكري الله.

ارتفع نشيج زيناهم، وأكملت بين دموعها:

- كل تفكيره في النقود، يريد الدنيا كلها في بطنه، تخيلي، طول عمري أعطيه راتبي ولا أسأله ماذا أنفق وماذا اشترى، الآن يقاتلني كل شهر على المرتب ..

- ... أستاذ عبد التواب؟!

- يريد مني أن أعمل ليل نهار، هو يعود من المدرسة يتغدى واقفًا، ويدور بسيارته على البيوت يعطي دروسًا خصوصية للأولاد، ويطلب مني أن أعطي دروسًا في البيت للبنات.

- والعيال؟ ومذاكرتهم؟

- يقول المال هو الباقي لهم، وغصَبني على الدروس، وفتحت بيتي للبنات، وكل بنت معها سائق وسيارة، ولم يعد بيتًا، شكوت لأهلي، فلم يتحرك أحد من إخواني.

- الأمور هذه تحلونها بينكما بعيدًا عن الأهل.

- تخيلي، وصل جشعه أن يشغّل عربته أجرة لتوصيل أولاد

الناس للمدارس، ويحشرهم مع عيالي حشرًا، ولا يهتم بصراخي،

وإحراجنا مع الناس في الشارع.

* * *

تحت المصباح النيون، لمعت خيوط الجلباب الأبيض ناعم الملمس ؛ الذي ارتداه عبد التواب، واحتلت ساعة ذهبية الطلاء معصمه. شعر نادي بعدم الارتياح، يتكلم عبد التواب بسرعة، وقد بان الإرهاق في قسماته :

- الغلاء في البلد هنا لا يمكن احتماله، كيف تعيشون هنا؟ لقد أنفقت خلال أسبوعين، ما كنت أنفقه في سنة عندما كنت في مصر. ابتسم نادي، يعلم أن هذه أعراض العودة من الإعارة:

- نعيش كما كنت تعيش يا عبد التواب، الدنيا بخير، والغلاء على الجميع، المهم الصحة ورضا الله علينا، لا تشغل بالك.

- صحيح، طول عمرك لا تحسبها.

- وأنت أيضًا لم تكن تحسبها مثلي، نحن أصحاب من أيام المدرسة.

ارتشف عبد التواب جرعات من زجاجة مياه غازية يقطر ثلجها على زجاجها من الخارج، ونفث طويلا وهو يقول:

- أنت أقرب صديق لي، أريد أن أحدثك في موضوع.

- خيرًا يا أبا ياسر.

- أشتكي لك من زيناهم، أريدك أن تنصحها، تمرّدت علي.

- لماذا ... ؟

اقترب عبد التواب من صديقه هامسًا:

- لا تريد أن تفهم أن مدة الإعارة أربع سنوات، ونعود بعدها إلى مصر، هدفي مستقبل الأولاد، وأنا عندي خمسة الآن.

نظر عبد التواب إليه طويلا، وتمتم:

- طبعا، هي فرصة ..، ربنا يبارك في أولادك.

ـ أنت قلت إنها فرصة، وهي لا تريد أن تفهم، تريدنا أن نعيش هناك كما كنا نعيش في مصر، لا ننظر إلا تحت أرجلنا، وتساعدني في بناء البيت "بالقطّارة".

اضطر نادي إلى الإنصات لصديقه، الذي راح يشتكي من العمل ليل نهار من أجل استغلال الفرصة، التي لن تأتي إلا مرة واحدة في العمر، ويكفي ما ضاع من سنين، وختم:

ـأرجو أن تحدثها يا أبا عاصم، وتنصحها.

الدهشة تملأ وجه نادي، وتحبك لسانه لحظات:

ـ أنا يا عبد التواب؟!

ـ آه، أنت صاحبي القريب, وهي تحترمك وأنا أثق فيك.

ـ أنا مستعد للتدخل، ولكن المشكلة ليست في المال، ولا مستقبل الأولاد ..

انتبه عبد التواب؛ هاهو نادي ببصيرته، فتساءل بحرج:

ـ ماذا تقصد؟

ـ أنت صديقي، وزوجتك أختي ..

ببحة كرر عبد التواب استفهامه، فنظر نادي إليه بسكينة قائلا:

- لا تصلح الألسنة ما تغير في القلوب.

* * *

في الحنطور الذي أقلّ نادي وأولاده في طريق عودتهم من حي البارودية إلى الصوفي، سلك "العربجي" طريق شارع المدارس، حيث كثرت الحفر وتكسر الأسفلت، وبدت أشجار الشارع كخيال المآتة؛ أغصانها جافة عارية، تزيد الكآبة وسط سكون لا يناسب ليلة صيف، مالت بدرية على نادي، وكان الظلام قد أطبق كتله، وبدت مباني المدارس أكثر سوادًا.

- متغير أنت يا أبا عاصم!

- أبدًا، أتعجب من تقلبات النفوس.

- هل اشتكى لك عبد التواب منها؟

أحست بعينيه تتطلع إليها كان ضوء النجوم خابيًا، قالت هامسة:

- طوال قعدتي معها، تشتكي، وتبكي، وأنا أهدئها.

- .....

شعرت بيده تحيط بكتفها، ويده الأخرى تتحسس الأولاد.

* * *

- وماذا نويت أن تفعل يا عبد التواب بعد استقرارك في مصر؟

تساءل نادي، وهو يسير مع عبد التواب في شارع "الرملة"، حيث محلات الأدوات الصحية ومستلزمات المعمار على الجانبين، كان عبد التواب يتفحص ببصره ما يعرضه أصحاب المحلات على الأرصفة، انتبه لسؤال صديقه، فعلّق:

- أفضل شيء فعلته يا نادي أنك بنيت بيتًا مستقلا لعيالك.

- الحمد لله، هذا بيت على قدر حالنا.

كأنه يتذكر:

ـ كنت تسألني عن ماذا ...؟!

أعاد نادي سؤاله، وعبد التواب ينصت مُتفكرًا:

ـ هل تقصد أن أعود ثانية للتدريس؟ انس يا حبيبي، من يسافر ويتذوق طعم المال الكثير، تضيق نفسه بالملاليم التي كنا نشتغل ليل نهار لها.

ـ آه، وماذا نويت أن تفعل إذن...؟!

ابتسم عبد التواب، وجذب نادي إلى مقهى صغير، وجلسا.

ـ يا عزيزي لقد مات فيّ المدرس، ولم أعد قادرًا على العودة للمهنة مرة ثانية.

ـ منذ أربع سنين في الإعارة تقول ذلك؟

أحضر النادل كوبي عنّاب مثلج، فشرب عبد التواب عصيره دفعة واحدة، وتجشأ وهو يضحك قائلا:

- أنجزت في أربع سنين ما لم أنجزه في عشرين سنة، عمارة جديدة، واشتريت سيارة "بيجو" سبعة ركّاب، وعندي حساب في البنك.

- ربنا يديم النعمة عليك.

- ربنا يسهل عليك أنت، وتسافر الإعارة مثلنا.

يضحك نادي، وهو يقول:

- ليس لى في السفر كما تعلم...!

تأمله عبد التواب صامتًا، ثم همس بتسليم:

- أنت يا نادي نوع مختلف عنا، نحن أكلتنا الدنيا، وأنت تأكل الدنيا، نركض للرزق، وأنت يركض وراءك الرزق، لديك الوظيفة، ودكان، وبيت، وأمورك مستقرة.

- الحمد لله، رزقنا يأتينا ما دمنا نحيا.

أحضر النادل عصيرًا ثانيا لعبد التواب؛ بناء على طلبه، تجرعه على مرتين وقال:

- بصراحة يا نادي، أنا كنت أخطط ليوم عودتي من الإعارة، وسعيت في المنطقة التعليمية بالهدايا وما شابه، ونقلت نفسي إلى إدارة الخدمات التعليمية.

- هذه إدارة لا شغلة فيها ولا مشغلة.

- وهذا ما أريده، وسأقلب سيارتي أجرة، وأعمل على خط (الفيوم - القاهرة) .....!

- تعمل سائقًا أجرة!

وقف عبد التواب وهو يقول هازئًا:

- نعم، موظف محترم يأخذ مرتبًا، دون حضور، ثم سائق أجرة ينادي في موقف "التاكسي" على الركاب يا عمي هذا أفضل شيء أعمله، وربنا يسهل وأسافر مرة ثانية بصراحة أنا أبحث عن عقد.

* * *

حرارة الشمس المسلطة على أفنية المقابر ؛ تجفف الريق، رطبت العجوز "بدرية" حلقها؛ برشفات من زجاجة المياه التي اقتربت من النفاذ، تتذكر الحنفية التي كانت أمام

ساحة بيتهم القديم المطل على بحر يوسف، أقامتها البلدية أواخر الأربعينيات، ذهب عمها يشتكي إلى رئيس البلدية، وقال: الناس ازدحموا أمام البيت، والمياه وسخّت الشارع . الله يرحمك يا أبي، قال لعمي: المياه ثواب، يناله من أعطاها أو سهل في عطائها، وبدلا من أن يشتري الفقراء المياه من السقّا، يأخذونها من الحنفية قدام بيتنا مجانًا.

* * *

في ميدان المطافئ، على الضفة الأخرى من بحر يوسف، في مواجهة مسجد قايتباي، ثمة ثلاث حافلات صغيرة، تنتظر العائلة والأقارب، اليوم زواج إبراهيم من ابنة الحاج محمد الرشيدي، كان العرس في كازينو اللؤلؤة على شاطئ بحيرة قارون، إخوة إبراهيم ملأوا الحي كلامًا عن الفرح الذي سيتحاكى الناس عنه.

- ما دام الرجل بعث لنا دعوة، نروح ونحضر يا بدرية.

- أنا نفسي مصدودة من بيتهم كله، قرفت يا نادي من تكبرهم.

- هيا، البسي، وهاتي البنتين معك.

في الحافلة، بجوار بدرية جلس نادي، فيما جلست ابنتاهما في المقعد الخلفي مشغولتين بالفساتين الجديدة، ورفض الولدان أن يحضرا، تحركت الحافلات الثلاث، وارتفع الطبل والغناء، الطريق المسفلت إلى بحيرة قارون أشد ازدحامًا، انتصبت مبان كثيرة في ثنايا الأرض الزراعية على جانبي الطريق. همس لزوجته:

- تذكري يا بدرية زمان، عندما زرنا حدائق السيليين وشاطئ البحيرة. آه، أيام حلوة، كان عمر عاصم سنتين.

- ركبنا الأوتوبيس وكان قديمًا، كنت أنا وأنتِ جانب بعضنا ..

أكملت مبتسمة، وهي تدنو منه أكثر:

-.. وعاصم على حجري، والأولاد والبنات يغنون "يا سواق يا شاطر وادّينا القناطر، يا سواق يا بليد، ودّينا الصعيد".

يضحكان، والحافلة تمضي، والذكريات تنثال.

* * *

- هيا نذهب ...

قالها نادي وهو يهب منصرفا، وتبعته بدرية والبنتان:

- لماذا يا نادي؟ سألته بدرية، إلا أنه آثر الصمت.

وقف على الجانب الأيسر من الطريق المسفلت، ونسمات البحيرة الرطبة تداعب الوجوه، راح يشير إلى سيارات الأجرة، حتى

توقفت إحداها، وركبوا جميعًا.

- الجو خانق، الكل يكذب.

- ماذا حدث ...؟

أم العريس تتباهى، وإخوته يتكبرون، يظنون الدنيا تغني لهم وحدهم. وأهل العروسة ناس على قدر حالهم، والعروسة بنت غلبانة.

نفخ في الهواء، وتمتم:

- أدّينا الواجب، وباركنا لهم العرس.

* * *

حمل وجه رمضان غيظًا، سألته بدرية:

- بيت عمي معروض للبيع.

- معقول ...! من قال لك؟

الحي كله يتكلم، وسمعت أن المشتري تاجر الموبيليا الحاج محمد العيسوي.

* * *

في طريقها إلى السوق، مرت بدرية على البيت القديم، السواد يكسو جدرانه الخارجية، ويطل الظلام من كوّاته ونوافذه، كأنه مال إلى اليسار قليلا، هل سيسقط ...؟!

"الله يرحمك يا أمي، كانت تقول: البيوت تعاشر سكانها، تقوى بشبابهم، وتشيخ بشيبتهم، وتموت بهجرانهم".

بدت حنفية مياه البلدية - جانب البيت - كنتوء حديدي مغطى بالسناج.

الفصل الرابع

برودة شمس العصاري

أيتها العجوز بدرية، لهفي عليكِ وأنت لا تزالين في موقفك في المقبرة، نسيتِ أبناءكِ المتجمعين في البيت اليوم، ينتظرونك. صلّوا الجمعة، ورائحة الأوز المشوية الفائحة تملأ أنوفهم. وها هما ابنتاكِ تعدّان المحشي، والأحفاد يلهون أمام باب البيت، يعلمون جميعا أنك قد تنسين كل هذا وأنتِ في وقفتكِ الأسبوعية في المقبرة؛ ليس أمامهم إلا انتظارك.

استدار قرص الشمس إلى غرب بحر يوسف، واصفرّت أشعته وحمل الهواء برودة خفيفة، فقد وهنت الأشعة، وتسللت الرطوبة في طيات الريح، إلا أن سخونة الظهيرة لا تزال متشبثة بالشواهد الحجرية، فلاذت بدرية بأسفل شجرة السنط العتيقة، التي انتصبت وسط المقبرة، ومن خلفها نخلة، تدلى جريدها، بعدما نضب تمرها .

تعلقت بدرية بفرع متدل، وراحت تراقب الزائرين في العصرية، أرجل قليلة، لنساء كبيرات، يتسندن على أحفادهن.

هل يتيهأن لولوج التراب، أم يسألن عن أحباب أهملهن أهل الدنيا؟

غريبة هذه القبور، تتوسط البلد، وقد تجاوزها العمران، وبات سكان العمارات يرون القبور القابعة في سكون نهارًا، والغارقة في الظلام الدامس ليلا، وينفون ما حفظته ذاكرة عجائز البلد عن عفاريت الموتى، وصراخهم ليلا.

ابتسمتْ، وهي تنظر لبرج ملون بدا بعيدًا، تبدو في شرفاته أطباق الستلايت الفضية، ياه، هناك ناس في الشقق تتصارع، وهنا ناس مستكينة، تنتظر من يسأل عنها ويحكي لها.

أحكمت بدرية الشال حول كتفيها، وردّت السلام على بعض العجائز اللائي صرن يعرفنها بجلستها الأسبوعية أسفل السنطة، وهي غارقة في مناجاتها، وتلاوتها، وهمساتها.

* * *

"لم أخبرك يا نادي أن أختك الحاجة بهية سلّمت الأمانة، الله يرحمها، نسيت أن أخبرك سامحني يا أبا عاصم، أنا زرتها اليوم، قبرها في ركن المقبرة القبلي، قريب من قبر أبيك وأمك، أنا أقسمت على التربي أن يبقي المكان حولك أنت وأمي وأبي فارغًا، يا ليت تكون رقدتي جانبكم، العائلة كلها عرفت هذا.

أختك الحاجة بهية ماتت من شهر، مسكينة تعبت كثيرا من المرض، راقدة من سنين، وبناتها حولها، من حركة أجفانها؛ يعرفون صحوها من نومتها، الأطباء احتاروا في مرضها الذي صلّب جسدها، وجعل عيالها يقلبونها كل ساعتين، خائفين من قرحة الفراش.

مسكينة عاشت على الجلوكوز الموصول بذراعها.

"الله يرحمها، يوم ما رفعت ابنتها صرختها، كان الناس طالعين من صلاة الفجر، وسمعت أنا الصرخة وأنا فوق السطح، نزلت أجري، سحبت الطرحة، أنا عارفة صوت ابنتها "هدى"، تذكرت أختك، ياه، أنا كنت مقصرة في

زيارتها، جريت، وأنا ألف الطرحة على رأسي، وأصرخ في الشارع، طلت الرؤوس وهي مغبرة بالنوم :

ـ خيرًا يا أم عاصم.

قلت: الحاجة بهية الله يرحمها، وسبحان الله، كان مشهد خروجها، ناس من كل مكان، حي الصوفي كله طلع، والجامع امتلأ بالمصلين عليها. كانت طيبة، أرقدها المرض، وهدّها، ولكني شفتها ـ بعينيّ ـ تصلي بجفونها".

"فتحوا مقبرة العائلة، ونزلت الحاجة بهية، ياه، من سنين وسنين، والتربي ما حفر أرضها، كل العائلة تجمعت على شاهدها، بكوا، وصرخوا، وأنا كنت معهم، قلت لهم:

ـ انتبهوا ، أنتم واقفون على قبور آبائنا وأمهاتنا، ويمكن التراب تحت أقدامكم طحين عظامهم. زارها عيالها مرات، ثم انقطعت أرجلهم، وأنا أزورها كلما جئت، الزيارة واجبة".

* * *

انتبهت على أذان العصر، أصوات المؤذنين آتية من المساجد البعيدة، متداخلة، تذكرت أنها على وضوء من

صلاة الظهر. تطلعت حولها، النسوة والصغار من بعيد، لا رجال. سترتها غصون السنطة المتدلية وهي تؤدي ركعات العصر، وتغرق في دعائها.

طوت سجادة الصلاة، تعلم أن زمن عودتها أزف، ابتسمت، تتذكر أن أبناءها يفطرون متأخرين في نهار الجمعة، ويتغذون بعد العصر، وهي لم تزر أحبابها منذ أسبوعين؛ لتبق قليلا، تؤانسهم، وتأتنس بهم.

* * *

" آه يا نادي، ما ننسى يومك وأنت تسلّم الأمانة. بعث لك أبوك الحاج علي ابن أخيك "محمد"، تعال يا عم نادي، جدي يريدك، خيرًا يا ابني. جدي بعافية. كنتَ ساعتها راجعًا من المحل، بعد صلاة العشاء بساعة، طلعت من البيت، وأنت بالجلابية، ولولا أني لحقتُك بالنعال، كنت خرجت حافيًا، الله يرحمك، كانت روحك في والديك، أسرعت في الشارع، وأنا وراءك، أول مرة أعملها معاك، كل مرة كنت أتركك تروح وتأتي تحكي لي، وأنا أزورهم في اليوم الثاني.

في هذه الليلة، تعلقت بك، ورميت على أكتافي الملاءة السوداء. أنت خائف على أبيك وأنا خائفة عليك، كان شيئا غريبا في نفسي. هذا أمر الله، أنك تموت بين ذراعيّ، وسط الشارع، شارع البحر، يسار الشارع، والسيارات أكثر من البشر، وأنا جانبك.

أنت رحتَ، وزرت أباك، كان عنده برد في مفاصله، وضحّكتَ معه، وأنت تقول له:

ـ باب النجار مخلع، أنت مجبراتي عظام، ومفاصلك تتعبك.

رد عليك وقال لك:

ـ يا نادي، ودي تكون معي نروح لدكتور العظام. أول مرة تقولها يا حاج علي، تريد أن تروح لدكتور العظام، وأنت تعالج عظام الحي كله. سكت الحاج علي، ورفع رأسه وهو يقول:

ـ أنا عندي خشونة عظام يا بني، وأي برد يؤثر فيها، وزيت الزيتون والزيت الحار والجبيرة ما نفعت معها.

ضحكت أنا ونادي، وضحكت الحاجة أمك، وهي تقول:

- سآتي معكم، أشوف الدكتور، أنا عمري ما شفت الدكتور، أبوك يعالجني، والداية تولّدني.

ضحكنا كلنا، وانحنيت أنتَ تقبّل يد أمك وأبيك، وقلت خلوني أرجع للبيت، ومن الفجرية سأكون عندكم، ونسافر للقاهرة، وهناك الدكاترة كثيرون، "رجعت يا نادي، ملتَ عليّ، وقلت لي:

- أنا خائف على أبي، السن حكم، وصار عظمة كبيرة، وأخاف عليه من مشوار القاهرة.

طمأنتك أنا. فجأة، تسنّدت علي، شعرت بثقل جسمك، على كتفي، قلت لك: ما لك يا أبا عاصم؟ خيرًا.

قلت لي:

- أبدًا، يظهر أني تعبان.

قلت:

- طيب، نوقّف عربة حانطور نركبها إلى البيت.

ضحكتَ بصعوبة، وقلتَ:

ـ كلها دقائق ونصل، والدقائق صارت عمرًا، وسنين، وآهات.

" وقعتَ مني، في الشارع، وقعت كأنك قاعد من السجود، وجهك ناحية القبلة، قعدت جانبك، الناس التمّت حولنا، وسدّت الشارع، وأنت تقول لي:

ـ الحمد لله يا بدرية، يظهر أن الأجل جاء.

"ألحقوني يا ناس"، شوفوا دكتور.

الوجوه اصفرّت، وشفتُ اصفرارها في الليل، تحت ضوء عامود النور في الشارع... شفت صفرة الموت، وأنت وجهك كما هو، هادئ ساكن، نفس هدوئك، لا يتغير، لطمت النساء الوجوه، وأنا أصرخ فيهن، حرام عليكم، يا ناس، أبو العيال، رجلي، واقع بين أيديكم، وأنتم تتفرجون.

نزل الدكتور يوسف من عيادته فوق محل العطارة. نزل بالسمّاعة، على صراخي، أسرعَ ناحيتك، ولمس وجهك وقال:

ـ انقلوه يا جماعة من الطريق.

حملتك أيديهم، أجلسوك على كرسي، وأنا متعلقة بك، كان جسمك دافئًا، وظل دافئًا حتى يوم خروجك، سبحان الله.

بحلقت في عين الدكتور يوسف، مسكت يده، وقلت: لا تنطقها...

قال: يا أم عاصم، كل نفس ذائقة...، احملوه يا جماعة لبيته..."

* * *

لم يعرف السائرون في المقبرة كنه غمغمة العجوز، شفتاها مزبدتان، تمسح الرضاب، وتستعيذ بالله.

نادتها إحدى الجالسات في مقبرة مجاورة:

ـ أم عاصم، مالك؟

انتبهت لصوتها، عليها أن ترد عليها.

ـ خيرًا يا أختي، لا شيء، ولكن زيارة الأحباب تهيّج القلوب.

- صدقت يا أختي، صبّرنا الله جميعًا.

* * *

"كنت عارفة يا نادي أنك زهقت من دنيانا، تقول لي:

- إبراهيم سافر فرنسا، وأخذ أبناء عمك، وتركوا البنات مع أمهن في البيت؛ إبراهيم طلّق سوكا الفرنساوية بعد خمس سنين، بعد أن أخذ الجنسية وشفط فلوسها.

وجاء إليك يا نادي، يقول لك:

- ابحث لي عن عروسة من أقاربنا ومن معارفك يا أستاذ.

أنا كنت حاضرة عندما زارنا، ساعتها قلت له:

- أنت تغيرت يا إبراهيم، وبناتنا لا تنفع معك.

زعل إبراهيم وقرر أن تزوجه أمه، ركب عربته العريضة التي ركنها أمام البيت في الحارة، وفرح وهو يرى البنات تتفرج عليها من الشبابيك المفتوحة. لم يفهمك يا نادي، كان غرقان في العربة وسلسلة المفاتيح الذهبية، واللبس

الغالي الإفرنجي. تزوج بنت محمد الرشيدي، أنجبت له ولدين، وكان نصيبها الطلاق، لم يحتملها إبراهيم، البنت مسكينة، ليس لها في دنيا فرنسا.

من ساعتها، لم يرفع إبراهيم عينه في عينيك"!

* * *

"آخر سنين لك يا نادي، صرت وحدك، أصحابك سافروا أو أخذتهم الدنيا، تجلس في الدكان وحدك، تروح المدرسة وحدك. صاحبك عبد التواب رفض السفر مثلك، ويوم وراء يوم، انشغل بالدروس، جعل بيته في حي البارودية مدرسة، غرفة جنب البيت يدرّس فيها الأولاد .

قلتَ لي:

ـ مسكين، لا ألومه؛ متعلق في رقبته خمسة عيال.

ولكنك لم تعد تحكي عنه، وهو زميلك في المدرسة، أسألك عن زوجته، تسكت. طلبت منك في يوم أنك تقول لي:

- هل بينكما زعل؟

قلت:

- ما فيه شيء.

حلفت عليك مرة ثانية، قلت لي:

- يا بدرية، عبد التواب يضغط على التلاميذ في المدرسة، ويهددهم بالدرجات، والتلاميذ فقراء، وآباؤهم عمّال على باب الله، ومع ذلك هو صاحبي، وسأزوره، وربنا يهديه".

* * *

"حملوك للبيت، يا حبيبي، أنا أغمي عليّ، فتحت عيني، لقيت نفسي في بيت إبراهيم الدالي، قمت أجري، وزوجته ورائي، دخلت بيتنا، كان أبوك في الصالة متماسكا، ويقول:

- الضربة الثانية شديدة قوي.

ويتذكر أخاك هاشم، ويقول:

- نادي الحنون، نادي الطيب، حكمتك يا رب، نحمدك على قضائك. وأمك جانبه تضرب كفا بكف، وتقول لأبيك:

ـ عشنا أنا وأنت يا حاج علي "عشان " نودّع هاشم أكبر عيالنا، ونادي أصغرهم، إنا لله وإنا إليه راجعون " .

" أبوك وأمك صبّراني، والنار تحرق قلبي ... "

" يوم خروجك، البنتان في بيت الجيران، والولدان عاصم وعمر بين الرجال، صممت أن أشوفك قبل ما تطلع من البيت وحلفت عليهم، تدخّل أبوك وقال لهم:

ـ خلّوها تروّي عينيها. أنزلوا النعش، وفكوا الكفن، كان وجهك منورًا، وجسمك دافئا، برد قلبي.

وهمست لأبيك:

ـ ادفنوه جانب أبي وأمي يا حاج".

" عشنا أنا وعيالك بستر الله، معاشك، ودكانك، والبيت، العيال تزوجوا، وأنا وفّيت العهد "

* * *

هتف عاصم بقلق:

ـ تأخرت يا أمي، جعنا ونحن ننتظرك، الأكل لا يحلو إلا بكِ.

تساؤل دلال:

ـ كل هذا في المقبرة يا أمي؟!

ردت الأم بحنان:

ـ ضعوا الغداء، دقيقة أغسل وجهي ويدي.

كان وجهها مشرقًا، وضحكتها صافية، وهي توزّع الأوز والفراخ على الصغار قبل الكبار، وأعطت زوجي ابنتيها قبل ولديها.

شربوا الخشاف، وارتشفوا الشاي، عيناها لا تغادر قسماتهم، تحملق فيهم، صامتة، باسمة .

* * *

صلّت العشاء، أحكمت لفّ شالها الصوفي حول كتفيها، وهي تنصت للآيات المنسابة من المذياع. يشتد البرد بها، الأولاد عادوا لبيوتهم، وأخذوا الصغار معهم، إلا دلال التي

حلفت أن تبيت معها الليلة؛ دلال الآن تزور ابنتيّ إبراهيم الدالي في البيت المقابل ، وقد وعدتها أن تعود بعد ساعة...

" البيت دافئ بأولادنا يا نادي، لكن صحبتك أدفأ " .

" البرد في العظام شديد يا أمي، والسن حكم يا أبي " .

يتخاتلون أمام عينيها .

.....

عزمتْ أن تصلي سنة العشاء والوتر، فرشتْ السجادة، استقبلت القبلة، لم يمنع شالها البرد المتسلل إلى مفاصلها.

التكبيرة، الفاتحة، الركوع، السجود، تقعد من السجود.....

الوجه منوّر، الجسد دافئ.

جامع قايتباي يغصُّ بالمصلين.

.....

عن المؤلف

د.مصطفى عطية جمعة

أكاديمي ، وأديب ، وناقد أدبي .

صدر له :

1) وجوه للحياة ، مجموعة قصصية ، نصوص 90 ، القاهرة ، 1997م

2) نثيرات الذاكرة ، الجائزة الأولى في الرواية ، دار سعاد الصباح ، القاهرة / الكويت ، 1999م

3) دلالة الزمن في السرد الروائي ، نقد ، جائزة النقد الأدبي، الشارقة ، 2001

4) شرنقة الحلم الأصفر ، رواية ، الجائزة الثانية في الرواية عن نادي القصة المصري ، 2002 ، نشر : مركز الحضارة العربية ،2003م .

5) طفح القيح ، مجموعة قصصية ، مركز الحضارة العربية ، القاهرة ، 2005م .

6) أشكال السرد في القرن الرابع الهجري ، نقد ، مركز الحضارة العربية، القاهرة ، 2006

7) أمطار رمادية ، مسرحية ، مركز الحضارة العربية بالقاهرة، 2007م.

8) هيكل سليمان (إسلاميات) ، دار الفاروق للنشر ، القاهرة ، 2008م .

9) ما بعد الحداثة في الرواية العربية الجديدة (الذات ، الوطن ، الهوية) ، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، عمان ، الأردن ، 2010 .

10) نتوءات قوس قزح ، رواية ، سندباد للنشر ، القاهرة ، 2010 .

11) اللحمة والسداة ، نقد أدبي ، سندباد للنشر ، القاهرة ، 2010

12) الرحمة المهداة ، خلق الرحمة في شخصية الرسول (ص) ، إسلاميات، مركز الإعلام العربي ، القاهرة ، 2011 م

14) مقيم شعائر النظام ، مسرحيات ، دار الأدهم للنشر ، القاهرة ، 2012م.

15) قطر الندى ، مجموعة قصصية ، دار شمس للنشر والمعلومات ، القاهرة، 2013م .

16) على متن محطة فضائية ، رواية للأطفال ، منشورات مكتب التربية لدول الخليج العربي، الرياض ، 2012م .

17) سفينة العطش ، مسرحية للأطفال ، منشورات مكتب التربية لدول الخليج العربي، الرياض ، 2012م .

16) رواد فضاء الغد ، قصص أطفال ، منتدى الأدب الإسلامي ، الكويت ، 2014م .

17) لكل جواب قصة ، مسرحيات للأطفال ، منتدى الأدب الإسلامي ، الكويت ، 2014م .

18) الظلال والأصداء، نقد أدبي ، دار شمس للنشر والمعلومات ، القاهرة، 2015م

19) الحوار في السيرة النبوية ، إسلاميات، دار شمس للنشر والمعلومات ، القاهرة، 2015م

21) شعرية الفضاء الإلكتروني في ضوء ما بعد الحداثة ، نقد أدبي ، دار شمس، القاهرة ، 2016 .

22) الإسلام والتنمية المستدامة ، دار شمس للنشر والمعلومات ، القاهرة ، 2016م

23) الوعي والسرد ، دار النسيم للطباعة والنشر ، القاهرة، 2016م .

24) سوق الكلام ، مسرحيات ، دار النسيم للطباعة والنشر، القاهرة ، 2016م .

25) السرد في التراث العربي (رؤية معرفية جمالية) ، دائرة الثقافة والإعلام ، الشارقة ، 2017م .

تحت الطبع :

- البنية والأسلوب ، بحوث أدبية ونقدية ، 2016م .
- الفصحى والعامية والإبداع الشعبي ، بحوث أدبية ونقدية ، 2016م .
- إدارة الأزمة في القرآن والسنة (إسلاميات) .
- الإسلام والمستقبل : قضايا النهضة وإشكاليات الواقع . (إسلاميات) .
-اليسار والإسلام السياسي . (دراسة فكرية وسياسية)
- الحكم الراشد (رؤية إسلامية حضارية) .
- العقرب والبندول : في قضايا الحداثة والنقد الثقافي والتلقي . (بحوث أدبية ونقدية)
- وسطية الإسلام : قضايا التجديد والثقافة والمعاصرة. (بحوث فكرية إسلامية)
- المحكي والحكاء : في خارطة الرواية العربية الجديدة (نقد) .
- القرن المحلّق (الرواية الإفريقية وأدب ما بعد الاستعمار)، نقد .
- الإبداع الموازي (في قضايا نقد النقد وتساؤلاته) .
- نهر وأمواج ورمال (مقالات عن الغربة والثقافة) .
- جامع الأمة الحسن بن علي ، أطفال، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

- حكايات خلود وعهود . (قصص للأطفال) .
- الزهرات الثلاث . (مسرحية للأطفال) .
- عالم بلا أسلاك . (قصص علمية للأطفال) .
- البرتقالة في الزجاجة (قصص لليافعة) .

عضوية :

- اتحاد الكتاب ، مصر - نادي القصة ، مصر
- رابطة الأدب الإسلامي العالمية ، الرياض .
- الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .

جوائز دولية :

- جائزة الطيب صالح في النقد الأدبي ، العام 2017م ، عن كتاب "القرن المحلّق : الرواية الإفريقية وأدب ما بعد الاستعمار .

- جائزة مركز جيل للدراسات والبحوث عن بحث : النقد العربي والنقد الغربي (نهج التلقي والتفاعل والتقييم) ، 2015 م .

- جائزة مختبر السرديات بالإسكندرية (2011) ، عن بحث " اختراق الوعي في سرد محمد حافظ رجب.

- جائزة اتحاد كتاب مصر في النقد الأدبي ، عن كتاب اللحمة والسداة ، 2011 .

- جائزة مكتب التربية العربي لدول الخليج العربية ، في أدب الطفل ، 2011 م عن رواية " على متن محطة فضائية " ، ومسرحية " سفينة العطش " .

- جائزة المركز الأول في النقد الأدبي ، مسابقة إحسان عبد القدوس ، القاهرة 2009 م .

- جائزة عن كتاب " ما بعد الحداثة في الرواية العربية الجديدة " ، ضمن المسابقة الدولية للنقد الأدبي ، لمؤسسة الوراق للنشر والتوزيع ، الأردن ، وتم نشر الكتاب .

- الجائزة الأولى في الرواية ، دار سعاد الصباح ، الكويت ، 1999م.

- جائزة النقد الأدبي ، عن دائرة الثقافة والإعلام بالشارقة ، عن كتاب " دلالة الزمن في السرد " ، 2000م .

- الجائزة الثانية في الرواية ، نادي القصة ، القاهرة ، 2001 . عن رواية " شرنقة الحلم الأصفر " .

- الجائزة الثانية ، لجنة العلوم السياسية ، المجلس الأعلى للثقافة ، مصر ، 1999م ، بحث مصر والعولمة .

- الجائزة الثالثة ، مركز الخليج للدراسات السياسية والاستراتيجية ، القاهرة / البحرين ، 2002 ، بحث مؤشرات التطور الديمقراطي في البحرين .

- أربع جوائز عن بحوث فكرية في مسابقة الكويت الدولية الإسلامية للأعوام (1999 – 2004) عن بحوث : الإسلام والعولمة ، النظام الوقفي في الإسلام ، وسطية الإسلام ،

- ثلاث جوائز عن قصص قصيرة في مسابقة الكويت الدولية الإسلامية للأعوام (1999 – 2004) .

- جائزة مسابقة الشخصيات الخيرية في الكويت ، 2007م ، عن بحث " الشخصية الخيرية في الإسلام : عبد الله المطوع نموذجا " .

* **للتواصل مع المؤلف**: mostafa_ateia123@yahoo.com

mostafa_ateia123@hotmail.com